أسعد سعيد

الزجل في أصله وفصله

أسعد سعيد

الزجل في أصله وفصله

المؤلف

- من أكبر شعراء الزجل في القرن العشرين.
- من مواليد بلدة الصرفند في جنوب لبنان، سنة ١٩٢٢.
- غنّى على منابر العتابا في فلسطين قبل النكبة.
- انتخب عضواً منبرياً في فلسطين، مع السيد محمد مصطفى، وعبد الجليل وهبي، وعبد المنعم فتيه.
- ساهم في تكوين جوقات الزجل، من جوقة زغلول كفرشيما، إلى جوقة الجبل، إلى جوقة زغلول الدامور، إلى جوقة القلعة.
- صدر له ديوان (بيدر عُمر).
- تبارى مع كبار شعار الزجل في لبنان.
- مجدد في الوزن والقافية.
- هو القائل:

الكلمة باب عالعالم بتفتح

طلوت عمر الزمان وما طواها

لبنان

لبنان بالدنيا وطن ما أجملو

أخضر والله بأرز أخضر كللو

بالليل عاجبالو النجوم بينزلو

وشمس الضحى بعيونها بتستقبلو

لبنان كان بالحرب واضح مشكلو

مش مشكلة خيّين عم يتقاتلو

أصل البلا إيدين ياما تدخلو

بأمورنا وكانوا الحريق يشعلو

بدنا الوفاق يتمّ والإلفة تعم

وراية وطنّا تضمّ شعب بكاملو

وتوقف بكل مكان عادروب الزمان

نغنّي سوا لبنان يا أخضر حلو

أسعد سعيد



9 789953 463575

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1430 هـ ـ 2009 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311
تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان
بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb
contact@editionmajd.com
http:// www.editionmajd.com

ISBN 978-9953-515-44-1

تـــقـــديـــم

نحن أمام كتاب سيترك أطيب الأثر في نفوس القرّاء. إنه رحلة ممتعة وعميقة الفائدة في عالم الزجل اللبناني، فهو بحث في أصله وفصله وتطوره عبر الأزمان وبخاصة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وهو يهتم بمطالع القرن العشرين ويتناول بالتفصيل الممكن، منذ بداية العقد الثالث للقرن الماضي، الشعر الزجلي المنبري او "فن القول" منذ تشكيل اول جوقة زجلية بمبادرة من أسعد الخوري الفغالي الملقب بـ "شحرور الوادي" عام 1928.

وصاحب الكتاب، الاستاذ أسعد سعيد، شاعر المنابر المميز على مدى عقود، هو في الوقت نفسه صاحب ثقافة واسعة وعميقة في مجاله، وحس مرهف وثقة عالية بالنفس مشفوعة بالاعتراف بمواهب الآخرين واحترام هذه المواهب وإبرازها وإقامة علاقات سليمة ورضيّة مع أصحابها، علاقات تنأى بأسعد سعيد عن منافسات "أهل الكار"، فالرجل، كما أسلفنا، واسع الثقافة وامتلك منذ شبابه وعياً إجتماعياً حصّنه ضد الجموح الذاتي الذي يميز أحياناً الشعراء وأهل القلم، وحيث تتحول المحورة حول الذات حاجزاً أمام الاعتراف بعطاء الآخرين وإبداعاتهم وكذلك بفضلهم في مجال تطوير فن الزجل وصقل ذائقة الجمهور وتطوير الذات من خلال التفاعل معه، فالكتاب الذي بين أيدينا من ألفه إلى يائه استعراض لفضل الآخرين على الشعر من

قبل شاعر كبير علمته حياته المديدة والغنية الدرس الأثمن، ونعني تلازم الثقة بالنفس والتواضع.

ويمثل الكتاب حلقات خمس وعشرين قدّمها أستاذنا أسعد سعيد في برنامج أسبوعي على أمواج أثير إذاعة "صوت الشعب"، في العام 1990. تمّ الإفراج عن هذه الحلقات بأريحية أصيلة تعبّر عن تقدير حقيقي للشعر الشعبي والرغبة في نشره، وتم نقل النص من الأشرطة الممغنطة إلى الورق، كما جرى التعامل مع المادة واستدراك الثغرات التقنية بعناية طيبة، وبمواكبة كريمة من قبل الشاعر نفسه رغم التعب وثقل السنين... إنها إذن، حلقات تنتظمها سلسلة تُقدَّم للقارىء، كما سبق وقدّمت للمستمع الزجل اللبناني في سياق من الفائدة المعرفية والسلاسة والمتعة.

عنوان الكتاب " أصل الزجل وفصله" شديد الطموح، فالأصل يمد جذوره في عمق التاريخ الثقافي والاجتماعي للبنان، وتفاعل هذه الثقافة مع ما سبق ومع ما وفد عليها لاحقاً، وكيف عبّر عن نفسه في شعرنا العامي الذي اغتنى مع رسوخ استقرار المجتمعات الفلاحية وتطور اللغة العربية الفصحى والمحاولات الجادة التي جرت وبخاصة في لبنان لملاءمتها مع حاجات الحياة المتجددة. ومن دون الخوض في نقاشات مألوفة عن المفاضلة بين الفصحى والعامية كمرتبة أدنى من الفصحى كما يعتقد بعضهم، أو مرتبة أعلى كما يعتقد بعضهم الآخر، علينا أن نلاحظ أن شعرنا العامي استفاد بصورة كبيرة من تطور اللغة العربية واغتنائها بما يمكن من التعبير عن قضايا العصر، كما واكب تطور الشعر الفصيح بمواضيعه وأدواته الفنية. وشعرنا العامي تأثر بالشعر العامي في البلدان العربية وتفاعل معه، وعلى وجه الخصوص في المشرق العربي (العراق وسوريا وفلسطين). وما زال الزجل اللبناني بحاجة لأن يوثق الباحثون صلاته بالشعر العامي المنتشر في الأقطار العربية

كافة وتحت مسميات شتى. يقول الباحث خليل أحمد خليل: "إن الزجل عربي أصلاً، بعضه من بغداد وبعضه من قرطبة، والزجل اللبناني مشتق من هذا الزجل العربي"[1]. وفي السياق نفسه يضيف الكاتب "فمن يفتش عن عروبة لبنان فليطلبها في هذا القول، فهو ابن عم الشعر الفصيح، إن لم يكن أخاه. إنه شاهد عدل على حب هذا الوطن للغة الضاد حتى تعاونت جميع طبقاته على إحيائها والإبداع فيها"[2]. وعلى غرار خليل أحمد خليل، يعتبر شاعرنا أسعد سعيد أن "في قول جميع القوّالة، من سليمان الشلوحي عام 1270 م. حتى رومانوس حنينه، ورشيد نخله والياس الفرّان والشحرور وعصره، لبنان الزجلي ليس ذا وجه عربي كما اخترعها بعض السياسيين. الزجل في لبنان عربي الوجه والقلب واللسان، عربي التراث"[3].

إن ما سبق من تأكيد على عروبة الزجل في أصوله وواقع حاله، يشكل في بعض وجوهه صدىً لنقاشات كان لها فيما مضى مغزى خاص من حيث ارتباطها بالنقاش المتعلق بهوية لبنان. أما الآن وقد ثبّت إتفاق الطائف هوية لبنان العربية، ومع تراجع أهمية هذا الموضوع، يبدو لي ضرورياً أن ينصرف المختصون والمهتمون بالزجل إلى تعميق ثلاث قضايا يتطرق إليها أسعد سعيد في ملاحظاته المتفرقة عن أصول الزجل:

أولاً: حبذا لو يتمكن الباحثون، وبالتعمق الضروري من القيام بدراسات مقارنة للزجل اللبناني مع نظيره أو نظرائه في عدد من الأقطار العربية كمنطقة الخليج، والمغرب العربي مروراً بمصر التي تنطوي على تراث

---

[1] راجع خليل أحمد خليل، الشعر الشعبي اللبناني(دراسة ومختارات)- دار الطليعة بيروت (د.ت) ص. 15.

[2] المصدر نفسه ص. 19.

[3] راجع أسعد سعيد – الزجل في أصله وفصله ص. 55.

زجلي زاخر وطويل يستمر في الحاضر، خصوصاً وأن بعض اللبنانيين أمثال فؤاد حداد كانوا من المجلين فيه.

ثانياً: حبذا لو يهتم الباحثون وبصورة أكثر منهجية بالتأثير الآرامي الغربي (أي السرياني) في الزجل، ونقصد أنه من الضروري تقصي آثار التراث الثقافي الشعبي السرياني، والتراث الكنسي وعلى وجه الخصوص التراتيل من حيث مضامينها وأوزانها، وكذلك الألحان الكنسية وأثرها في التراتيل المارونية وأثر هذه في بعض أوزان الزجل كما هو ممارس حتى الآن. على ان يتم ذلك بدون خلفيات وأفكار مسبقة او حساسية، بل بانفتاح وموضوعية، فالحضارة السريانية إحدى الحضارات العريقة التي تأثرنا بها، بل ورثناها، ومن الطبيعي أن نفتش عن هذا الإرث او ما تبقى منه في أدبنا الشعبي وفي زجلنا. أعرف أن عدداً من الباحثين اللبنانيين (وسواهم) قاموا بدراسات مقارنة بين العربية والسريانية إما من حيث دراسة اللغات السامية، وإما من حيث التدقيق في أسماء القرى والأمكنة.. لكن ما أدعو إليه هو التنقيب المتخصص في الحقل الذي يعنينا أي البحث في ما إذا كانت السريانية بآدابها وتراثها تشكل أحد الأصول التي يُعتدّ بها للزجل كما عرفناه في لبنان واستطراداً في المشرق العربي.

ثالثاً: وأما المسألة الأخرى الجديرة بالاهتمام فهي التأثير الأندلسي، من خلال ابن قزمان، على الزجل اللبناني. وأقصد بذلك ضرورة تجاوز العموميات المسلّم بها عن التأثر بزجل الأندلس، إلى البحث المتخصص بهذا التأثير وجلاء أبعاده، إذ ربما يقود ذلك إلى مجالات خصبة ومغنية خاصة بتفاعل هذا اللون من الأدب مع الآداب المحلية في إسبانيا وجنوب فرنسا والتأثر بها. فليس طبيعيـاً أن يكون العـرب والمسلمون قد امضوا زهاء ثمانيـة قرون (711م – 1492م) وتركوا كل التأثير الذي تركوه، من دون أن

يتأثروا بدورهم بثقافة وتراث الشعوب الأصلية. إن هذا النقاش حاضر بقوة عند الباحثين الغربيين، ومن الصائب والعادل والمغني كذلك أن يكون حاضراً عندنا[1].

هذا عن "أصل الزجل" بالاختصار الممكن الذي يتحمله مثل هذا التقديم، وأما عن فصله، فإن شاعرنا الكبير أسعد يبسطه أمامنا بسخائه المعهود وبحماسته للقول الجميل، وبتواضع جم لا علاقة له بما يحكى عن عداوات الكار او نرجسية الشعراء. وهو يذكرنا بالجذور العميقة للزجل وبأن له تاريخاً يمتد إلى 1500 سنة نقلاً عن فاضل سعيد عقل، ويرى ان ردّة الزجل قد "تصبح تاريخاً"، فمن من اللبنانيين لا يتذكر قول الأمير فخر الدين المعني في ردّه على آل سيفا الذين عيّروه بقصر قامته:

نحنا زغار لكن بالفعال كبار

وانتو خشب حور ونحنا للخشب منشار

ومَن من اللبنانيين، والجنوبيين خصوصاً لا يذكر الحداء الجنوبي الشهير (والمعروفة بالحوربة كذلك):

بشكـوف خبـّر دولتك　　سلطاننـا عبـد اللطيـف

ولكن أقدم ما نملك من الزجل المدون، قصيدة لسليمان الشلوحي (أو الأشلوحي) والتي يقدّر أسعد أنها تعود إلى العام 1300م. تقريباً، وهي من نوع الشروقي، والذي نراه مزدهراً في مطالع القرن العشرين مع شعراء من

[1] راجع دراسة مهمة بعنوان: الزجل والموشح: الشعر الأندلسي والتراث الرومانسي. جميس ت.مونرو في: الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس (ج 1)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1988.

مثل البقاعي السرعيني والبقاعي الزحلي يوسف حاتم، والجنوبي من بلدة شحور محمد محمود الزين. وقصيدة الأشلوحي، قصيدة رثاء لطرابلس وتفجّع على مصيرها بعد فتحها وطرد الفرنجة منها:

يا حزن قلبي وما بخلي من حزاني

والقلب من الحزن شاعل بنيرانْ

قلت يادار العز ما صابك

أصيح فيك وما أحظى بإنسانْ

قد جاوبتني دار العز قائلة

فرقهم الدهر بئس الدهر ما كانْ

ويرى شاعرنا هنا اختلالاً في الأوزان في القصيدة، وهو يميل إلى لوم الناقل الذي قد يكون على غير معرفة بالوزن، وقد تميز "الشروقي" كما رأيناه من خلال نموذج الشلوحي بكون صدر البيت حراً، وأما العجز فيكون ساكناً. وبعد الشلوحي سنرى الزجلية الشهيرة للمطران جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي والذي ينظر إليه عادة كأنه القوّال الأول وهو من القرن الخامس عشر، وكانت مواضيع أزجاله دينية وتصف احوال الطائفة، والمقصود هنا الطائفة المارونية. وزجلية إبن القلاعي التي نستشهد بها تسير على وزن "القرّادي":

إبليس أب كل الطغيان

نظر شعب مارون فرحان

حسدو ورماه بالأحزان

ونعلم من شاعرنا أسعد أن في تراثنا أكثر من عشر نغمات من وزن القرّادي تستخدم بأشكال مختلفة: العمام (أو عالعميّم).. الندّا.. الماني..

الهوارة.. الزينو..اللالا. كلها أوزان قرّادي تُغنّى بنبضات مختلفة، ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الأشكال جميعها ما زالت رائجة وشعبية في لبنان بمناطقه المختلفة.

وإذا كان الشاعر يبحث عن الصلة بين هذا التراث المتداول في صفوف النخبة وبين فن "القول" بشكله الحالي، فإن الدكتور أميل يعقوب وفي تقديمه لكتاب "روائع الزجل" يستعرض أسماء كثيرين أتوا بعد الشلوحي والقلاعي من مثل سرجيس السمار جبيلي (القرن السادس عشر) والقسيس عيسى الهزار (نهاية القرن السادس عشر) والخوري كامل نجيب (أواخر السابع عشر) الخ.. ليستخلص، كما سنرى مع الدكتور يعقوب وفيما بعد مع أسعد سعيد "أن الزجل لم يكن ذا مكان بين اللبنانيين قبل القرن التاسع عشر... لأن ناظميه، ومعظمهم من رجال الأكليروس تكلفوا فيه تكلفاً أبعده عن أذواق العامة بما أدخلوا من أنواع بديعية وزخارف لفظية في أوزان مضطربة وقوافٍ لا انسجام فيها ولا ارتباط مع ركاكة في الأسلوب وتقليد أعمى، فيه الكثير من الجمود، كل ذلك مع مزج العامية بالفصحى مما جعل العاميين والفصحاء ينفرون منه على حد سواء..."[1].

وبالإضافة للقرّادي بتنوعاته وتعدده، يتطرق الشاعر إلى لونين من الزجل لطالما اكتسبا أهمية طاغية في الشعر العامي اللبناني، وقد تمثل هذان اللونان بالعتابا والمعنّى. وسوف يخبرنا شاعرنا أسعد سعيد أن "جميع المؤرخين اتفقوا" على الأصل العراقي للعتابا، ومن الأبوذية العراقية تحديداً. وهو لون الجناس نفسه الذي يميز "عتابانا" مع الاختلاف في القفلة التي تكون بالباء (ب) او بالألف باء (أ.ب.) بينما تكون القفلة في الأبوذية بـــ (ي.ا.)

[1] روائع الزجل اللبناني – إعداد أمين القاري – نشر جروس برس ص.6.

وأما منير وهيبه الخازن، في كتابه: الزجل تاريخه، أدبه، أعلامه قديما وحديثا، فيذهب أبعد من ذلك ويرى ان العتابا من ابتكار عشيرة الجبور (شمال غرب العراق). وأن أشهر من نظم فيها هما: حمادي الجاسم الجبوري وعبدالله الفاضل من قبيلة العنبزي. وبدوره يؤكد الباحث العراقي محسن جمال الدين تحت عنوان "ملامح الحياة الشعبية في الزجل اللبناني" ان العتابا منسوبة إلى قبيلة الجبور التي ذكرها الباحث منير وهيبي.

ويرى أسعد سعيد أن الشاعر الياس البدوي المعروف بـــ"ابو شهاب" ينتمي إلى المرحلة التي سبقت "الزجل المنبري" والتي من أبرز كوكبتها الياس الفرّان ومحمد السلطان، وخليل سمعان الفغالي، ومنصور شاهين، وأسعد دكروب، وأمين أيوب الخ. وابو شهاب هوالقائل:

على الله تعود بهجتنا والفراح
وتغمر دارنا البسمة والفراح
قضينا العمر ولف طل وولف راح
وضاع العمر هجران وعذاب

هذا البيت الجميل من العتابا الذي طالما طربنا لسماعه بصوت فناننا الكبير وديع الصافي من دون ان نعرف مبدعه! ويخبرنا أسعد سعيد أنه حضر حفلة لجوقة عتابا كانت تضم مشاهير قوّالة العتابا في تلك الأيام: محمد محمود الزين، يوسف حاتم، راغب الزهر، أسعد الموسوي. وهو يروي ذلك في معرض توضيح التوازي اوالمعاصرة بين الانتشار المنبري للوني المعنّى والعتابا في لبنان، ولكن لذلك سياقاً آخر.

ومن اللافت للنظـــر أن من بين الأسماء الأربعـــة التي يوردها شاعرنا: أسماء رائدة في فن العتابا جنوبي (محمد الزين) وثلاثة بقاعيين

(يوسف حاتم من زحلة) راغب الزهر (من بدنايل قضاء بعلبك) واسعد الموسوي (قرحا قضاء بعلبك). وللبقاع مع فن العتابا قصة يرويها في كتاب بشيء من التفصيل وبكثير من الشغف والتدقيق التاريخي في الوقت نفسه، الأديب والباحث محمود نون[1]. والكتاب ليس مخصصاً حصراً للعتابا، بل هو يحفظ مكاناً للشروقي والمعنّى والقرّادي. ولكن البقاع (الشمالي خصوصاً والأوسط وإن بدرجة أقل) شكّل تربة خصبة للعتابا بفعل موقعه الجغرافي وبفعل نمط عيش أبنائه، وبفعل كونه صلة الوصل مع مناطق عدة داخل وخارج لبنان. وفي هذا السياق يرسم الباحث نون المؤثرات التالية في تشكل الفولكلور البقاعي والشمالي منه خصوصاً:

1- العلاقات الإقتصادية – الاجتماعية مع سوريا.
2- التمازج الديمغرافي والتبادل السكاني والهجرات.
3- التواصل المستمر مع شمال لبنان.
4- التواصل مع فلسطين ومصر والمغرب العربي من خلال الجنوب (جبل عامل).
5- التواصل مع الجبل.
6- التواصل مع المدن الساحلية الذي ازداد قوة بعد أعوام الجفاف الذي ضرب البقاع في أواسط الخمسينات من القرن العشرين.

يستعرض نون 40 شاعراً بقاعياً، اتسم انتاجهم بالتنوع ولكنهم تميزوا بكونهم شعراء عتابا اولاً، وهو يغطي بدراسته مرحلة تمتد من أواخر القرن التاسع عشر إلى ستينات القرن العشرين.. ويحاول رسم سيرة ذاتية تقريبية

[1] محمد نون – الشعر الشعبي في البقاع – إشكالية الدلالة والمصير – اتحاد الكتاب اللبنانيين– بيروت 1999.

لكل منهم، وعرض نماذج من نتاجهم في جهد توثيقي مشكور وفريد (حسب اطلاعي) بخصوص منطقة البقاع. ويرصد الباحث تراجعا في اهتمام الجمهور بهذا اللون وبالزجل عموماً.

ويرد ذلك إلى أسباب عديدة منها الحرب الأهلية التي فصلت بين الفنانين وجمهورهم، هذا الجمهور الذي بدأ يميل "لأسباب عديدة إلى أنماط غنائية جديدة".

وفي عودة إلى "قال القوّال" يردّ شاعرنا أسعد سعيد تراجع منبر العتابا لصالح منبر المعنّى إلى أوائل الخمسينات. وهو يرى أنه في الستينات لم يعد على المنبر جوقات عتابا متكاملة، وكانت النتيجة أن استولى منبر "المعنّى على العتابا والشروقي وأصبحا يستعملان كوصلة غزل قبل ختام الحفل". ويرد شاعرنا الأمر إلى "صعوبة العتابا"، فشاعر العتابا يقع تحت صعوبة الجناس واختيار القوافي الثلاث والختمة بـــ "الباء" ما يجعل من الأمر أكثر صعوبة لخلق الجواب.. ويمكن ان نضيف من جانبنا.. وصعوبة متزايدة لدى الجمهور في اللحاق بالشاعر الموهوب والمحترف الذي يحاول ان يطوّع قوافيه من خلال الزيادة والإدغام، ومن خلال طريقة اللفظ كذلك، حتى تصل قافية الشاعر مفهومة وبالسرعة المناسبة للمستمع.

ها نحن قد استبقنا الأمور قليلاً ودخلنا عالم الزجل المنبري، الذي سوف نتطرق إليه لاحقاً، ولكن قبل ذلك ما زال علينا ان نعرّج ولو قليلاً على لون المعنّى "عريس الزجل والمنبر الزجلي على السواء". فشاعرنا يتوقف عند انتشار لون المعنّى في المشرق والخليج العربيين. ولما كان الزجل في تعريف أسعد سعيد، هو "الأخ الشعبي للشعر الفصيح"، فلعلّ في وزن "الكامل" الشائع في الشعر الفصيح (متفاعلن متفاعلن متفاعلن = متفاعلن متفاعلن متفاعلن)، لعل فيه جذالة خاصة وجاذبية مميزة جعلت من صنوه

الشعبي (المعنّى) نوعاً واسع الانتشار في الإطار العربي، وبخاصة في الشعر الشعبي اللبناني، وقد شكّل المعنّى ولا زال درّة تاج الزجل في لبنان، وعلى الأخص زجل المنابر طيلة عشرات السنين.

يستحضر شاعرنا أمثلة على المعنّى من مصر (بيرم التونسي) ومن قطر (محمد بن جاسم الفيحاني) ومن الإمارات العربية المتحدة (مبارك بن حارث المنصوري) كما يستحضر طرفة ذات مغزى من فلسطين حيث احترف أسعدنا الزجل وفن القول لأكثر من عشر سنوات في جوقات المباريات المنبرية، وفي إحياء الأعراس والمناسبات. فهو يروي أنه كان في عرس ولم يكن عند الشباب قوّال (حدّاء) وهم يريدون قول شيء في المناسبة، وفجأة سمعهم يحدون من بحر "الكامل" بشعر لعنترة العبسي: حَكِّمْ سيوفك في رقاب العزّل = وإذا نزلت بدار ذلٍ فارحلِ. وهو رأى في ذلك شاهداً على صلاحية وزن "الكامل"، أي المعنّى بشكل "يستطيع فيه الردّادة أن يردوا على الشطر الأخير منه ويكون الأساس لعمار المنبر الزجلي".

والشاعر لا يجزم، ولا يقول بالأصل العربي القُطري للون (المعنّى) اللبناني، بل هو يشير إلى جذور مشتركة وحتى إلى ذائقة واحدة واسعة الانتشار في المنطقة العربية. وأما في ما يخص (المعنّى) في لبنان فهو ينقل عن أمير الزجل رشيد نخله تأكيده أن أول زجلية أتت من الجنوب. شاعرنا لا يجزم بهذه المقولة، وهو يميّز فيقول "إن أول زجلية وُجدت في الجنوب، تعني أن أول ردّة معنّى قد انتقلت او كتبت في الزجل على وزن المعنّى..". وهو يشهد على الانتشار الواسع للمعنّى في لبنان من خلال ما كتبه رشيد نخله او تركه من تراث شعري يعود بـــ 75% منه إلى لون المعنّى. ويخبرنا أسعد أنه عثر على شاهد شعري جنوبي يرقى إلى 150 عاماً ويتمثل بقصيدة لشاعر من بكاسين اسمه رومانوس حنينه، تنبيء سيرته الزجلية أنه تغلب

على "كل قوّالة زمانه، ومعنى ذلك أنه كان هناك الكثير من القوّالين في الساحة". وخاتمة الحكاية أن الشيخ بشير جنبلاط استدعاه وألبسه عباءة مذهبة ولقبه بـــ "أبو علي" !

وإذا كان لبنان لم يتفرّد بالزجل، اوالشعر العامي كشعر موازٍ للعربي الفصيح، وإذا كنا نجد لزجلنا نظيراً في البلدان العربية، فيمكن القول بالمقابل أن بلدنا قد تفرّد على مستوى الزجل المنبري، أو المنبر الزجلي الذي تجلّى بعشرات الجوقات ومئات القوّالين الذين صعدوا إلى المنابر خلال العقود الستة او السبعة الماضية.

نعرف من شاعرنا، وكذلك من عموم الباحثين، أن المنبر الزجلي نشأ اوتأسس بمبادرة من أسعد الخوري الفغالي (شحرور الوادي) الذي أسس جوقة سُميت بجوقة الشحرور عام 1928، وضمت إليه كلاً من علي الحاج القماطي، وأنيس روحانا، وطانيوس عبدو، وبعد وفاته إنضم إلى الجوقة إميل رزق الله. وقبل هؤلاء كانت الجوقة تضم إلى الشحرور، ولكن دون أن تستقر، الياس القهوجي وأمين أيوب اللذين كانا يكبران الشحرور سناً، بينما كان أفراد الجوقة الجديدة متقاربين بالسن. وقد احترفت الجوقة الزجل "بعد ان اكتملت بعناصرها الأربعة المتجانسة بالفكر والمتقاربة بالعمر". ويصف أسعد سعيد جوقة الشحرور بأنها "القلعة الزجلية الأولى للمنبر غطت مساحة زمنية تمتد إلى 43 عاماً من تاريخ المنبر الزجلي، تسع سنوات قبل رحيل الشحرور و 34 عاماً قبل رحيل علي الحاج". ص.67.

ومن الملفت للنظر فعلاً هذه الزمالة التي انتصرت على استنزاف السنين الطوال، والتي لم يكن ممكناً لها أن تنشأ وتستمر بدون صداقة عميقة ترتكز بدورها إلى احترام يقوم أساساً على الاعتراف بموهبة الشريك وعطائه الفعلي للجوقة ورضى الجمهور وتفاعله مع الجوقة وأفرادها من

دون أن نغفل المناقبية المشهورة عند أسعد الفغالي رئيس ومؤسس الجوقة، ومن دون أن ننسى كذلك ما اشتهر به علي الحاج (بو حسين) من شهامة و فروسية. ونعتقد أن التأكيد على الصفات الشخصية للمؤسس، وكذلك الوريث الجدير في إدارة الجوقة، من دون إغفال حقّ الآخرين، ليست مسألة تفصيلية في وسط يتّسم بالإبداع والامتاع، لكنه يتسم أيضاً بقدر لا يستهان به من المزاجية.. وأحياناً الأنانية! والا كيف نفهم سهولة وسرعة تشكل وانفكاك عشرات جوقات الزجل خلال عقود، العمر القصير نسبياً لهذه الجوقات وسهولة انتقال عدد كبير من القوّالين من جوقة إلى أخرى؟ يبقى الأهم وهو أن الاستقرار الذي عرفته جوقة "شحرور الوادي" من حيث بنيتها البشرية، قد ساهم بالتأكيد في صقل المواهب وفي إنضاج خبرة التفاعل مع الجمهور، ما ساعد المنبرعلى ان "يتطور ويواكب الزمن" على مايقول أسعد سعيد، الذي دون أن يبحث في تحليل وتقييم المحتوى الشعري للقول المنبري، يدقق في الشكل ويطرح لقارىء هذا الكتاب، كما سبق وطرح لمستمعي إذاعة "صوت الشعب" جملة من الأسئلة": ماذا طوّرت جوقة الشحرور في تاريخ المنبر الزجلي، وماذا حذفت وماذا زادت، وما هو الجديد الذي زرعته في حديقة المنبر، وكيف استطاعت ان تجعل للقول هذه الشعبية الكبيرة؟"

ويذكّر أسعد بأن الجوقتين البارزتين على الساحة الزجلية في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كانتا جوقة زغلول الدامور التي تشكّلت من الزغلول نفسه (جوزف الهاشم) وزين شعيب وأسعد سعيد وجان رعد. وجوقة الجبل التي استقرت على الشعراء خليل روكز، وأنيس فغالي، وموسى زغيب وجرجس البستاني، وهما جوقتان عرفتا الاستقرار نسبياً وامتدتا في الزمن. ويضيف شاعرنا أننا "لانستطيع أن ننسى جوقة (كروان الوادي) التي تأتي في تاريخ المنبر الزجلي كحلقة وصل بين جيل جوقة

الشحرور وجيلنا" ص.173. وعلى لسان الشعراء يقول أسعد نحن شعراء الزجل خرجنا من السهرات إلى المنابر. ويرى أن تاريخ الزجل يدين لبلدة المتين التي لها الفضل في تطور منبر التباري. "المتين كانت ساحة وعروس المباريات الزجلية"، وقد شهدت أول مباراة ضخمة بين جوقة "زغلول الدامور" و"جوقة الجبل" ص.167-168.

ويعترف شاعرنا بدور خاص للإذاعة اللبنانية في تاريخ المنبر الزجلي، فيصفها بأنها كانت من أنشط المنابر. لم يحرم منها شاعر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال "وقد تستغربون، يقول أسعد، إذا علمتم أن على شرائط ندوة الزجل في الإذاعة اللبنانية أسماء لــ 35 جوقة زجلية وإذا ضربنا 35×4=140 قوالاً"! ومن منا ينسى فضل التلفزيون من خلال برنامجه الزجلي الأسبوعي!

في إطار هذا التقديم المخصص لكتاب يتمحور حول الشعرالمنبري، وبعد الصورة العامة التي يسمح بها مثل هذا النص الموجز، وإذ نحن نذكّر بأن لبنان لم يتميز بالشعر العامي الذي نجده في كل البلدان العربية مع تباين اللهجات، فإن لبنان تميز بالتأكيد، بل يكاد يكون قد تفرّد في ميدان الزجل المنبري. والمعروف، كما مرّ معنا ان أول جوقة زجلية تشكلت في أواخر العشرينات، أي في المرحلة الذهبية التي تطورت فيها السياحة في لبنان، وبصورة أدق الإصطياف من خلال بلدان المشرق العربي. ومع الاصطياف تكاثرت مهرجانات الشعر وحفلات الطرب التي كان يتم إحياؤها من قبل كبار فناني المرحلة من مثل محمد عبد الوهاب، وأم كلثوم وفريد الأطرش وسواهم.. وقد حفّز ذلك بالتأكيد زجالينا، وفي الواقع طلائع منهم، لتجاوز سهرات الصيف ومباريات المناسبات والأعياد المناطقية، وعدم الاكتفاء بمناسبات الأعراس والمآتم، لإطلاق فكرة المنبر الزجلي المحترف الذي يعبّر

عن نفسه في حفلة تقام في مكان محدّد وإطار زمني محدد (حفلة لها بداية ونهاية) وفيها منبر يحتله قوالون بقصد التباري، ويكون فيه القوال شاعراً وملحناً وممثلاً على حد سواء على ما يقول أسعد سعيد. وهذايعني أن الحفل الزجلي من خلال تنظيم المنبر وتنظيم القول من على هذا المنبر تحوّل إلى مشهد جاذب لجمهور واسع يواظب بحماس على حضور هذا المسرح الذي تجري على خشبته وفق تعبير الشاعر سعيد عقل "المسايفة" بالكلام على "مرسح" تمّ إعداده من أجل هذا الغرض.

وهناك في الواقع عوامل عديدة لعبت دورها في ازدهار المنبر الزجلي في لبنان، لعل اهمها الاستقرار النسبي الذي شهدته البلاد طيلة عقود من السنين والجو الديمقراطي (النسبي مرة أخرى)، واستمرار الريف اللبناني في لعب دوره كولاّدة للزجالين، رغم أن الزراعة كانت قد بدأت تخسر موقعها الرئيس في تشكيل الدخل، وبدأ نمط الحياة الريفية يشهد تحولات وهجرات واسعة في بعض مناطق الريف من جراء الضغوط الاقتصادية او السياسية – الأمنية او الأمرين معاً، وهجرات إلى أماكن لا يمكن لها أن تعيد انتاج الحياة الريفية ومناخاتها الحاضنة لمواهب الزجل والمؤاتية لتبلورها وتطورها.

في الفترة نفسها شهدت منطقة "المثلث الذهبي" للزجل المنبري (ونقصد لبنان سوريا وفلسطين) حدثين بالغي الأهمية، الحدث الأول تمثل بـــ "النكبة الفلسطينية" عام 1948، وحيث تمّ تدمير الريف الفلسطيني من خلال طرد الفلاحين من إطار حياتهم الطبيعي الاقتصاي والاجتماعي والثقافي، بل شهدنا تحطم النسيج المجتمعي الفلسطيني بكامله. بعض الزجالين الفلسطينيين (وهم قلّة) تابع نشاطه الزجلي في بلد اللجوء وانخرط في جوقات لبنانية، ولكن الزجل المنبري الفلسطيني كظاهرة مستقلة موازية للظاهرة اللبنانية ومتفاعلة

معها (خاصة في الجليل) هذه الظاهرة كانت من ضحايا "القدم الهمجية" التي احتلت شمال فلسطين ودمرّت الريف الفلسطيني وحولت فلاحي هذا الريف إلى جموع من اللاجئين في ذاكرتهم مكان "للقول"، ولكن وضعهم الجديد لا يعيد انتاج نمط حياتهم الريفية بقيمها، التي كانت ستنتجه لـ "القوّال" ولـ "القوالين". وأما في سوريا فقد دشن الانقلاب العسكري الأول عام 1949 (بقيادة حسني الزعيم) وما تلاه مرحلة طويلة من عدم الاستقرار السياسي واضطراب مناخ الحريات بما لا يساعد على ازدهار الزجل المنبري الذي يفترض تناول الظواهر السياسية والاجتماعية بدون الاضطرار لحسابات كثيرة.

وأما في لبنان فقد ساعدت مناخات الحرية والتعددية، ومعرفة المجموعات اللبنانية بعقائد ورموز ديانات ومذاهب بعضها بعضاً، وجعلها مادة تبادل وتباري محببين على المنابر بروح طيبة مقربة للقلوب، بعيدة عن التعصب واستثارة الضغائن والنفور. والدليل هو أن الزجل المنبري عبر التجربة المريرة للحرب الأهلية، متجاوزاً بحدود كبيرة انقطاع المناطق عن بعضها وحواجز الخطف على الهوية، وبقيت فرق الزجل، وعلى الأقل الرئيسية منها، تجوب مناطق لبنان بالحرب وبقي ممكناً للزجالين أن يرددوا مع أسعد سعيد:

عمـــري ندرتـــوا للهـلال وللصليـب

وقطعـــة أنـــا منــك يـــا لبنـــان الحبيـــب

كل بيـــت بيتـــي وكـــل ضيعـــة ضيعتـــي

والكـــل أهلـــي ومـــا حـــدا عني غريـــب

وهذا تعبير جميل عن واقع حال جرّبه اللبنانيون. وكما شكّلت الحرب الأهلية امتحاناً للزجالين، شكّلت امتحاناً أيضاً لجمهور الزجل الواسع الذي

برهن على وعي وعلى سليقة في التسامح واستعداد للإعتراف بالتعدد واحترامه. وقدّمت المهاجر الواسعة مثالاً للتشارك الوجداني مع الوطن الأم، من خلال احتضانها لجوقات الزجل المتنقلة تحكي هموم الوطن الممزق وتدعو إلى نصرته ودعم وحدته.

وإذا كانت مناخات لبنان الليبرالية الحاضنة للتعدد وقيم التسامح قد لعبت دوراً حاسماً في نشوء الزجل المنبري وتطوره وبلوغه ذروة غير مسبوقة عشية الحرب الأهلية، فإن ذلك لم يكن ممكناً حصوله لو لم يكن الزجل موجوداً اصلاً، ولو لم تكن عوامل نموه الموضوعية متوفرة في الريف اللبناني نفسه، وفي كونه كان يستجيب لحاجة موضوعية في المجتمع، وينسجم، بل ويشكّل عنصر تشجيع لسياسة الدولة التنموية كذلك.

* * * *

ما قلناه حتى الآن يضيء على أصل الزجل وفصله حتى الماضي القريب، لكن ماذا عن حاضر الزجل وبخاصة ماذا عن مستقبله؟

فلنسارع إلى القول إن الزجل المكتوب أي الشعر العامي باللهجة اللبنانية، لا خوف عليه، فسوف يستمر كما الشعر الفصيح في لبنان، وبالتفاعل مع المجتمع اللبناني بتطوره، ومع الثقافة باغتنائها والتيارات الثقافية على تعددها واختلافها، سوف يفيد الشعر العامي المكتوب من تجاوره مع الشعر الفصيح ومن مخزونه اللغوي وقدرته على سبر الأغوار الإنسانية، من دون ان يرتكب خطأ تقليده... لكن مرة أخرى ماذا عن الشعر المنبري؟

كثير من النقاد والمتابعين يقولون إن الزجل المنبري في حاله تراجع، ونحن نرى في هذا القول وصفاً صحيحاً للحالة، لكنه وصفٌ لا يفي بالمطلوب، وربما يكون الأصح والأكثر دقة القول بأن الزجل المنبري في

حالة أزمة. وحتى لا يكون هناك التباس، نوضح ان المقصود ، أن زجل "القول" الذي اندرج في مؤسسة تتمثل بالجوقة والمنبر، هو الذي يعاني من الأزمة، ونخشى الا تكون هذه الأزمة عابرة بل مؤشر لنهاية مرحلة، وإذا لم يبادر أصحاب الشأن لإيجاد روافع نهوضه من جديد انطلاقاً مما هو قائم وتطويراً له.

إن أبرز عناصر الأزمة نراه في التحول الاجتماعي، ونقصد التحول الذي يعنينا هنا، اي ذلك الذي يمس الريف اللبناني. ولعلنا لا نبالغ في القول انه لم يعد هناك ريف لبناني يلبي الوظيفة التي كان يلبيها في الماضي بالنسبة للزجل. الريف بزراعته التي تشكل عماد الحياة الرئيس، والعمل فيها موسمي تقطعه شهور شتائية طويلة (بطالة عملياً) وسهرات الريف شبه اليومية التي يتعلم فيها الشباب فن القول بالإضافة للأعراس والمناسبات حيث يشحذون مواهبهم في مباريات القرية ومنها يخرجون إلى المجال الأوسع.

وفي مقارنة تخدم فكرتنا، وهي قريبة من الدقة، نرى ان الريف اللبناني لعب بالنسبة للزجل المنبري، الدور ذاته الذي لعبته الأرياف البرازيلية بالنسبة للعبة كرة القدم الشهيرة، ونقصد أن "الكم" الكبير من اللاعبين الذي كان يقدمه الريف، والفرز الذي كان يجري تلقائياً على المستوى المحلي والمناطقي، أدى إلى بروز لاعبين نوعيين بل متميزين على المستوى الوطني[1]. والظاهرة نفسها تجلت في ميدان الزجل المنبري حيث أبرزت حياة الريف بطبيعتها ووتيرتها، بمواسمها وفصول عملها وعطالتها،

[1] صديق مهتم وخبير في شؤون كرة القدم أخبرني ان الانتخاب الطبيعي للاعبين المتميزين في بلدان مثل البرازيل والارجنتين والارغواي كان يبدأ من الملاعب واللعب شبه المنظم في الأرياف، أما في البلدان المتطورة (الأوروبية مثلاً) فقد لعبت المدارس والرياضة المدرسية دور الانتقاء.

بمناسباتها وأفراحها وأتراحها، أبرزت على امتداد هذا الريف آلاف المواهب. وليس في الأمر مبالغة فبعض القرى اللبنانية (وهي قليلة بطبيعة الحال) تميزت بأن عدد القوالين فيها لا يقل عن عدد غير القوالين! وهذا لا يعني، أن المواهب كانت متساوية، أو أن الاستعداد للإحتراف كان واحداً عند جميع الموهوبين هؤلاء. ولكن المقصود أن ازدحام الريف اللبناني بالمواهب (ولو المتفاوتة) والظروف الأخرى المؤاتية التي مرّ ذكرها وفّرت جيلا بعد جيل، منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وفي كل مرحلة مئات من الطامحين لاعتلاء صهوة المنبر الزجلي من موقع الاحتراف، برز من بينهم العشرات في ساحة الاحتراف الفعلي، اي الانتظام ضمن جوقات تحترف الزجل في الوطن والمهاجر. ونحن نرى جميعاً الآن ان الريف اللبناني تبدل بعمق، ولعبت الهجرات الاقتصادية والسياسية (تحت وطأة العدوان الإسرائيلي او جائحة الحرب الأهلية) إلى أحياء المدن أو ضواحيها، وبخاصة العاصمة، لعبت دوراً في تجفيف مصادر الزجل، من دون أن يمس هذا القول بالضرورة تذوق هذا الجمهور الريفي المهجّر للزجل، والاستعداد بكل طيبة خاطر، لا بل بحماس لتحمل عناء الانتقال لحضور حفل زجلي منبري يستغرق الساعات الطوال.

* * *

إن استمرار الحال على ما آلت إليه الأمور، يهدد بتحويل الزجل المنبري إلى ظاهرة هامشية بين الفنون القائمة في لبنان. ولعل أفراداً أو جماعة من بين محترفي الزجل والمهتمين بأمره، يصرفون الاهتمام الضروري،ليس فقط من أجل التنقيب العلمي في أصل الزجل وفصله، بل وخصوصاً البحث في شجونه الحالية واسبابها الحقيقية وكيفية معالجتها او على الأقل كيفية المباشرة بإيجاد معالجات مبنية على تجارب الزجالين

المحترفين الكبار، الذين ما زالوا في ميدان العمل او اولئك الذين تقاعدوا (أطال الله في أعمارهم) وما زالوا يتمتعون بصفاء الذهن والذاكرة الطيبة... فالتطويرات التي ادخلتها جوقة شحرور الوادي ومن أتى بعدها لم تعد كافية أمام التطور الاجتماعي وانعكاساته باتجاهين: تراجع دور المجتمع الريفي في رفد المنبر الزجلي بـــ "كمّ" من الزجالين يعطي "النوع" المناسب للمرسح الزجلي، كما ان جمهور الزجل بمعناه الواسع قد شهد تغيراً من السفيد الاعتراف به والتعرف على اتجاهاته.

ثم ان المناخ العام في البلاد من حول الزجل، قد شهد تطورات كبيرة سيكون من الخطأ عدم رؤيتها والتأمل بآثارها سلباً وإيجاباً. فالإذاعة اللبنانية التي امتدحها شاعرنا اسعد عن حق، لم تعد تؤدي الدور المنوّه به بالنسبة للزجل، وهي على كل حال لم تعد تحتكر الأثير ، فموجات الراديوهات وأقنية التلفزة الأرضية والفضائية شهدت نمواً انفجارياً يقدّم للمستمع والمشاهد، وخصوصاً من خلال موجاته وأقنيته المتخصصة، وعلى مدار الليل والنهار ترفيهاً سهل المنال لا يتطلب من الجهد أكثر من الضغط على أزرار الأجهزة، كما أن هذا الضخ الكثيف اليومي بمضمونه وتنوعه وسهولته، ومن خلال الصوت والصورة اللذين يقدمان مشهدية جاذبة، وبخاصة لجيل الشباب (لاحظ الفيديو كليب) قد ساهم في تطويع الأذواق وفي تطور نظام القيم الذي كان سائداً خلال العقود الماضية. وإذا كان الكلام عن تبدل في نظام القيم يبدو لبعضنا مبالغاً فيه، فلنعترف أن انزياحاً ما قد حصل في معيار ما يحب الناس في الفن وما لا يحبون، ولا يغيّر في الأمر كثيراً القول إن ذلك قد حصل بصورة موجهة او مفتعلة لغايات شتى تحت تأثير وسائل الترفيه الجماهيرية الطاغية الحضور، المهم أن ذلك قد حصل، والسؤال كيف يمكن التصدي الإيجابي لنتائجه السلبية؟ لنأخذ مثال الأغنية

اللبنانية الراهنة التي تضخها وسائل الترويج السمعي والبصري طوال اليوم، هذه الأغنية لم تعد تشبه كثيراً هذا الذخر الهائل من الأغاني الذي انداح أمامنا خلال العقود الماضية وكان عصارة إبداع شعراء منبريين وغير منبريين متميزين، فأتت الأغنية اللبنانية في طليعة الأغنية العربية بلا مبالغة او زهو يتجاوز الحد.. وأما الأغنية الراهنة فقد تراجع دور الشعر والمعنى فيها وتدني مستواه، وباتت على الغالب تلفيقة من الكلام والموسيقى والرقص، أجد نفسي مدفوعاً لوصفها بالهجانة! إن من حق الزجالين الحكم على هذه الظاهرة بقسوة او تسامح إذا رغبوا، ولكن من المهم أن يلاحظوا وبصورة مهنية أن الكلمة، جميلة كانت او رخيصة، باتت جزءاً من مشهد وأن هذا المشهد يفرض نفسه على الجمهور الواسع، لا بل أن الجمهور يبحث عنه.

لقد تطرقتُ لمحاً إلى تطورات واسعة حصلت في العادات والمجتمع .. والأمزجة، بعض هذه التطورات موضوعي لا رجعة فيه، وبعضه الآخر يمكن الفعل الإيجابي فيه من خلال ابتداع الأفكار والتطبيقات العملية المتناسقة مع التطور. ولعل عودة الاستقرار الموعود إلى ربوع بلادنا والخروج من دائرة الإضطراب والمشاحنات الأهلية يفتح باب العودة إلى ظروف ازدهر فيها الزجل المنبري ايما ازدهار بمشاركة النخب الثقافية اللبنانية، وكذلك برعاية الدولة من خلال وزارة الثقافة او السياحة، ثم إن عودة الاستقرار سوف توفر ظروف امتحان عادل لكافة الأفكار بشأن الزجل أو الزجل المنبري على وجه التحديد، فتسقط الأفكار الخاطئة غير مأسوف عليها، وتبقى الأفكار الجديدة بتوفير ظروف ازدهار مرسح زجلي يستعيد القدرةعلى جذب جمهوز واسع، يغتني بقطاعات مهمة من النساء ومن الشباب.

هذه بعض الأفكار التي خطرت لي وأنا أقرأ بشغف كتاب شاعرنا الكبير أسعد سعيد عن أصل الزجل وفصله، فعسى أن يرى فيها المعنيون بالمنبر الزجلي والحريصون على استمراره وتطويره بعض الفائدة.

وفي ختام هذه المقدمة يسعدنا أن نوجه الشكر الجزيل والعميق للذين من خلال مبادرتهم وأريحيتهم وجهودهم رأى هذا الكتاب الجميل النور. فشكراً للدكتور عدنان السيد حسين صاحب فكرة تحويل حلقات برنامج "قال القوّال" إلى كتاب نكرّم به شاعرنا الكبير، والشكر الجزيل للأستاذ رضوان حمزه مدير إذاعة "صوت الشعب" الذي ارتضى، وبأريحية كاملة التخلي عن الحقوق الحصرية في هذه المادة الإذاعية لصالح نشرها في كتاب يعمم الفائدة منها. والشكر الكبير للآنسة غادة صابونجي التي تولت بصبر جميل تفريغ أشرطة الحلقات، والتصحيح الأولي للنصوص. ويبقى الشكر كل الشكر للشاعر صاحب الكتاب، الذي واكب بصبر أبوي عملية إعداد النص فسمح تدخله بمعالجة الفراغات المتولدة عن قدم الأشرطة وساعد في إعادة ضبط سياق الحلقات. وأخيراً، ولما كان هذا الكتاب احتفاء بالكلمة الجميلة، فلندع مسك الختام قولاً لأسعدنا:

الكلمة باب عالعالم بتفتح   طوت عمر الزمان وما طواها
كلمة بتستر وكلمة بتفضح   وكلمة بتجرح وكلمة دواها
انا بفتش على الكلمة اللبتفلح   وبتعبي البيادر من جناها
لأنو الشاعر الفكرو مجنّح   بيحكم عالقوافي ومستواها
ولأنو الشاعر الفكرو مكرسح   مهما يشد بتضل القوافي
تشدُّو بخيط وتجرّو وراها

سليمان الرياشي

قال القوّال: في تاريخ الزجل

قال القوال وغنى قلنا شو قال
الساحة ولعاني عنّا صوت القوال
ردّو حواليَ ردّو القول المرصود
المرصود الكاتب حدو عالغيم حدود
ولما الفرسان احتدو وضج البارود
اهتزو الأشيا وانهدوا والصبر انشال

* * *

شعرك زهرة محروقة بحراك الليل
الليل الطاير عنزوقة من ميل لميل
يا سمرا يا عيوقة بصهلات الخيل
انتي النبلة المشوقة بايد الخيال

قال القوال يعني غنى الزجل، والزجل هو الشعر العامي بالنسبة إلى اللهجة العامية، أو الشعر الشعبي للشعب. القوال هو الاسم التاريخي للزجّال، والزجل أصبح اسماً مصطلحاً عليه حالياً بدلاً من القوال.

الزجل له شروش وجذور عميقة في الشعب، وتاريخياً يمتد إلى 1500 سنة، كما يقول فاضل سعيد عقل بتاريخ الزجل. الزجل رفيق حياة الضيعة اليومي ورفيق أفراحها وأعيادها ومناسباتها. ردّة تصبح موقفاً وردّة تصبح تاريخاً. من منا لا يذكر الأمير فخر الدين المعنيّ عندما عُيّر بقصر قامته، وله ردة لا تزال تعيش معنا:

نحنا قصار لكن بعيون الأعادي كبار

انتو خشب حور ونحنا للخشب منشار

وحياة زمزم وطيبة والنبي المختار

ما بعمّرك يا دير إلا من حجر عكار

من منا لا يذكر هذا الحِداء الجنوبي اللبناني، والذي لم يُعرف قائله، في وجه الطغيان الفرنسي:

بشكــوف خبــر دولتك   سلطاننـــا عبــد اللطيــف

بـــاريس مربط خيلنـــا   ورصاصنا لحَــق جنيــف

القوّال مهم جداً في الضيعة، ولم يكن هناك من ضيعة لم ينبت فيها قوّال. القوّال كان يحلّي ويجمّل سهرة الضيعة. القوّال الذي يرتجل الدلعونا هو من كان يدفع بالضيعة وأهلها إلى الدبكة من الغروب حتى طلوع الضوء؛ فلا سهرة مهمة من دون قوّال.

سنركز في "قال القوال" على التاريخ لنصل إلى النقطة الأساسية التي نريدها وهي "المنبر الزجلي". سنفتش عن الأوزان ومن أين أتت؟ وهي تتحرى تاريخياً حتى استلمها المنبر، ما هي الأشكال الزجلية التي غُنيت قبل المنبر، وكيف تمكن الشعراء من اختيار الأوزان المناسبة للمنبر، وكيف

حذفوا بعض الأشياء التي كانت مستعملة، وأضافوا إليها ما لم يكن مستعملاً. هذه الأشياء سنصل إليها تدريجياً.

والآن سنطل تاريخياً على بعض المصطلحات الزجلية من خلال القصيد:

زجلنا احتل ذروة ازدهارو

وفرض عا كل موقف اعتبارو

انطلق عا الكون من سجنو المأبد

تيعطي الناس فكرة عن عيارو

المطران القلاعي ابن لحفد

تغنى والزجل جلّل وقارو

والبطرك العاقوري تودّد

لها اللون الحلو وبارك ثمارو

وحتى مار فرام بكل معبد

أناشيدو صلا للدين صارو

المير بشير بالأزجال عدّد

وبيتو للجبل رجّف حجارو

وناصيف اليازجي البحرين أوجد

ربي بدمو المعنىّ وما استعارو

وابن نخلة نشيد الأرز أنشد

اللغة ربيت على خميرة ديارو

وإلا بالمعنّى ما استشهد

أمير وسيد ورافع شعارو

وعا إيامو إجا الشحرور أسعد

جناحو من سما بدادون طارو

مع المطران اللحفدي يبدأ تاريخ الزجل اللبناني المكتوب. يقول مارون عبود: المطران جبرايل ابن القلاعي اللحفدي هو القوّال الأول، عاش في القرن الخامس عشر، وقال أزجاله بمواضيع أكثرها دينية وطائفية. ومن أقوال المطران القلاعي:

إبليس أب كل الطغيان

نظر شعب مارون فرحان

حسدو رماه بالأحزان

لأجل اثنين كانوا رهبان

كان الأول من يانوح

والثاني من دير نبوح

كرّز بالسر الموضوح

كلمّهن روح الشيطان

سمع بذلك سلطان برقوق

وانفتحلو باب مغلوق

أرسل عساكر تحت وفوق

حاصر في جبل لبنان

إلى جانب الشطرتين عند المطران القلاعي، نجد أيضاً الردة المعمّرة من أربعة أسطر:

رادوا يقولو عنا في سر مخفي عظيم

إنو هراطقة كنا من الزمان القديم

جاوب الراهب حنا عاد كل عالِم بكيم

العقل منهن تحيّر غاب الصواب والبصر

نلاحظ هنا أن المطران القلاعي استعمل القرادي فحسب؛ مع اختلاف الإيقاعات الوزنية والنبضات الموسيقية داخل الشطر، مثلاً: "**كان في واحد من يانوح والثاني من دير نبوح**"، هذا الوزن القرادي، أصبح الآن مستعملاً منبرياً بكل الشكليات. أما الشكل الثاني الذي نلاحظ فيه أن الوزن لم يعد مستعملاً، هو: "**كرّز بالسر الموضوح كلمّهن روح الشيطان**"، نلاحظ هنا أن النبضات اختلفت، وليس الأمر غريباً؛ ففي التراث الفلكلوري عندنا يوجد أكثر من عشر نغمات من وزن القرّادي تُغنّى بأشكالٍ مختلفة، ومنها: العمّام.. الندّا.. الماني.. الهوارة.. اللالا.. الزينو، كلها أوزان قرّادات تُغنّى بنبضات مختلفة.

ولكي نبقى في صلب الموضوع، سنحاول جمع حلقات زجل تشكل مفاصل تاريخية لحركة المنبر.

نشأ المعنّى الحواري بردّات من سطرين تُسمّى "شرحة وردّة". السطر الأول شرحة والشطر الثاني ردّة.

يقول الشاعر الزجلي علي الحاج (القماطي):

شحرور عقرب ساعتك لسّاعتك

الدامور كِلاّ بكبرهـــا ما ساعتك

وسمعتها بتصيح بلسان الفصيح

الله يـــا شحرور يلعــن ساعتك

يرد عليه الشاعر الزجلي شحرور الوادي (أسعد الفغالي) :

ساعتي عقرب مسيرة ألمعي
يا ناس غير تكّاتها ما بتسمعي
وإن كان بالدامور لعنو ساعتي
بيكون لعلو ساعة الجبتك معي

بين التراث والقول

التراث أصبح له اليوم مصطلحاً متعارفاً عليه تحت اسم "فولكلور". هذه التسمية تضم كل المخزون الأدبي والغنائي المحفوظ في ذاكرة الشعب، الأمثال.. الأغاني.. الحكايات.. الحزازير.. الدبكة.. الرقصة.. وكل العادات والتقاليد التي تمثّل الطابع الحضاري الخاص لكل شعب.

هذا التراث ينتقل شفهياً من جيل إلى جيل من خلال معايشة التقاليد، الدبكة يتعلمها الجيل الصغير من الجيل الأكبر؛ الجيل الأكبر يغني والجيل الجديد يحفظ، النسوة الكبار يزغردن، والصغيرات يحفظن الزغاريد (الزلاغيط)، الأمثال تُردّد كُلٌّ في مناسبته، والصغار يتداولون الأمثال ويحفظونها من الكبار.. إلخ. وعلى هذا المنوال يستمر التراث المتواصل والمعاش.

تراثنا اللبناني مشترك مع سوريا وفلسطين، مع فوارق بسيطة لا تتعدى الفوارق بين محافظة وأخرى في البلد الواحد. كيف يتعمم هذا التراث؟ بين ضيعة وأخرى، وبلدة وأخرى مسافات قد تكون كبيرة، لكن التراث ينتقل ويمتزج بين كل ضيعة والضيعة التي تجاورها. الوطن شبكة كبيرة كل خيط مرتبط بالخيط الآخر، وسلسلة غير منظورة تربط الشعب الواحد بالتراث الواحد.

طبعاً، في بعض الضيع والقرى يوجد "قوّالة" يحملون الموهبة، يقولون ما هو جديد، وهذا الجديد إذا كان قيّماً يدخل في ذاكرة الشعب ويصبح بالتالي تراثاً.

طرقنا هذا الباب لنعرف الفرق بين التراث والقول. التراث شفهي شعبي متداول، أما القول فأمر آخر. القول أخذ من التراث الأوزان التي يجب أن يصب فيها قولاً جديداً. هنا الفرق بين التراث والقول، التراث ثابت بأكثريته بينما الزجل متحرك، من هنا لم تحفظ ذاكرة الشعب كل الزجل.

يقول الشاعر الزجلي أنيس روحانا للشاعر علي الحاج:

يـــا علي النـــّازل على سوق العراك
بتعرف أنيس بالسيف والرمح اشتراك
السيف قدامــك تيفتحـــلــك طـــريــق
للمقبـــرة والـــــرمـــح تيسكّـــر وراك

أجابه علي الحاج:

لمّـــا عليّـــي الرب صبّ مـــراحمو
مـــوتـــي وحياتي تقاتلو وتلاحمـــو
الموت اشتراني احتجت عليه الحياة
وصارو عليّـــي اتنيهـــن يتزاحمـــو

كانت الصورة للقوال وعلاقته بالضيعة، وإذا كان في الضيعة مناسبة مثل عرس أو عيد نجد الضيعة بجميع أهلها في الساحة مع الطبل والسنجق والصنوج والصبايا، هذا الموكب بكل هيبته تحركه ردّة الحِدى التي يجب أن يقولها القوال ولا يتحرك الموكب من دونها، ومن الممكن أن تكون هذه الردّة:

سيرو على ما يقدّر الله
والكاتبو ربّــك يصيـــر

هذه الردة تدخل في التراث ولا تزال وستبقى.

يرجع مرجعنا إلى جوهر الموضوع: **تاريخ المنبر الزجلي**. وللأسف إن الوثائق التي بين أيدينا قليلة، طبعاً بالنسبة إلى القديم، وأقدم ما نملك هو قصيدة سليمان الشلوحي. سليمان من قرية في الشمال اللبناني اسمها إشلوح، وأصبحت ضيعته هي عائلته مثل كثير من القوّالين الذين أصبحت ضيعهم عائلتهم ومنهم: محمود حداثة، وأحمد الحاروفي، وعباس الحوميني، أسماء من شعراء الجنوب أخذت ضيعهم أسماء عائلاتهم. وهكذا سليمان الشلوحي. وسليمان من مواليد عام 1270، ولو افترضنا أنه قد بدأ بكتابة القصيدة وعمره 30 عاماً، معنى ذلك أن عمر قصيدته الزجلية هو منذ العام 1300 تقريباً.

الأهم من ذلك هو وزن القصيدة وصياغتها الفنية، ومع قدمها لا تفرق كثيراً عن صياغة شروقيات عام 1900، التي نجدها عند السرعيني، وعند يوسف حاتم، وعند محمد محمود الزين. الفرق الوحيد أنه في أيام الشلوحي كانت قافية القصيدة التي هي العجز مربوطة، بينما كان الصدر حراً. لنستمع إلى ما تقوله القصيدة، وهي تحوي خطأً كتابياً:

يا حزن قلبي وما يخلا من حزان
والقلب من الحزن شاعل بنيران

صحيح أنها كانت يجب أن تكون على وزن الشروقي، أي:

يا حزن قلبي وما يخلا من حزاني
والقلب من الحزن شاعل بنيراني

لأنه في السطر الخامس، يثبت لنا الشاعر بقوله:

قد كان لها سور شامخ جداً
ما كان إلو على الأرض شبهاً ولا ثاني

أما ما هو مدون من القصيدة في بعض الكتب فقد جاء كما يأتي:

يا حزن قلبي وما يخلا من حزاني
والقلب من الحزن شاعل بنيراني
بطرابلس كان بدء القول يا حزَني
والقول من قبل هذا الشر قد خان
مين كان يصدق أن طرابلس تخرب
لولا تراها وتنظرها بأعياني
يا حيف تلك العلالي تصير منهدمة
وما بقالها أثر ولا حيطانِ
قد كان لها سور شامخاً جداً
ما كان له على الأرض شبهاً ولا ثاني
فتّ على القصر لقيت الويل طامرو
أسود وطالع من الأطواق دخانِ
وبكيت لما لقيت الدار خالية
وما كان في تلك الدار من سكانِ
قلت يا دار العز ما صابك
أصبح فيكِ وما أحظى بإنسانِ
قد جاوبتني دار العزّ قائلة:

فرّقهم الدهر بئس الدهر ما كانِ
قايلها شاعر الشلوح مسكنه
بين الورى اسمه سليمانِ

نلاحظ اختلالاً في الأوزان في هذه القصيدة، وممكن أن يكون الناقل على غير معرفة بالوزن، أو المغنّي لم يحتفظ بكل الكلمات الموجودة.

مثلاً في السطر الأول: "**يا حزن قلبي وما يخلى من حزاني**" صحيحة، "**والقلب من الحزن شاعل بنيراني**"، نستطيع أن نقول: "**والقلب من هالحزن شاعل بنيران**". "**في طرابلس كان بدء القول يا حزَني**"، لاحظ كم هي قديمة كلمة "يا حزَني"، وكيف ما زالت تردد في بعض المناطق. "**والقول من قبل هذا الشر قد خان، مين كان يصدق أن طرابلس تخرب، لولا تراها وتنظرها بأعياني، يا حيف تلك العلالي تصير منهدمة، وما بقى لها أثر ولا حيطانِ**". هنا الوزن مختل. في الختام وقوله: "**قايلها الشاعر الشلوح مسكنه، مشهور بين الورى اسمه سليمانِ**". نستطيع أن نقول: "**قايلها شاعر الشلوح مسكنه مشهور، معروف بين الورى اسمه سليمانِ**".

أعتقد أن التمكن من الوزن يدل على وجود زجل شعبي متحرك.

كيف نستطيع أن نربط هذه القصيدة بالشعر المنبري أو بتاريخ المنبر الزجلي؟ طبعاً القوّال لم يكن بالتالي وحيداً، بل كان يعايش شعراء، وكان بين الشعراء مراسلات، والأفكار تتطعم بالأفكار وتتحرك الكلمة نحو المسرح. لا ننسى أن المنبر الزجلي كانت ساحته القرية.. كل قرية في لبنان التي تحب هذا اللون التراثي المسمى بـ الزجل اللبناني.

في مزهرية القرّادي باقة من ورد، هذا الورد من حديقة جوق الجبل، زارعين هذا الورد وقاطفين براعمه، ومنهم: خليل روكز، أنيس الفغالي، موسى زغيب، جريس البستاني.

ومع أن هذه الورود قد تم اقتطافها منذ عشرات السنين، لكن لم يزل لونها ورائحتها وعطرها يدلّ على أنه تم اقتطافها الآن. ومع جوقة الجبل وبجولة قرّادي من حفلة في انطلياس يعود تاريخها إلى سنة 1960.

خليل روكز:

سبقنا فصل الشتوية   ع شواطينا البحرية
تنطعم خد الليمون   من التفاحة الصيفية
ودعنا الصيف بصنين   ونزلنا برفقة أيلول
نتذكر جرم التكوين   الخلاّنا نخلق وندول
بطلّع بعيون الحلوين..   وبتنهد وبصير بقول
يقصف عمرك يا تشرين   شو جاي تعمل فيي

أنيس الفغالي:

شفت خدودك مصفرين   ورجعت مغيّر لونك
صرت تباري المجتمعين   تنادينا وتطلب عونك
يا روكز لا تقيم الدين   تشكي ومغيّر لونك
شو مستنظر من تشرين   يعمل بالختياريي

خليل روكز:

تغير لوني وعمري صار   مثل الشمس العم بتغيب
لكن فكري بالأشعار   كل ما ختير عم بيطيب
تنطعم خد الليمون   من التفاحة الصيفية

أنيس الفغالي:

إن كان بدك بالرأي تصيب   لا تسب خدود الرمان
وعنقود اللي صار زبيب   مغذّى من أمو شبعان
وأكبر شجرة مهما تزيد   أثمار وتعطي الإنسان
بدها ساعة ما بتشيب   تنقص منها الماويّة

خليل روكز:

الشاعر لو صفى ختيار   محردب عاشوار التسعين
فرجيه فرافير صغار   بيرجع عمرو للعشرين
ولما يتحدو الأفكار   وبتزهر شجرة تشرين
بترجع بآخر آذار   تنبت أرض الحرية

أنيس الفغالي:

الشجرة مثل خدود السمر   بقشع فيها زهور ملاح
لوما تعيش ليالي حمر   الزهرة ما بتعقد تفاح
أفضل ما تعيش بتموز   عا الهبات النارية

في أوزان الزجل

تحدثنا عن المطران جبرايل القلاعي اللحفدي صاحب أول زجل لبناني مدوّن. هذا الزجل عمره أكثر من 500 سنة، وميزته أنه كتب على وزن واحد هو وزن القرّادي. ابن القلاعي وقبل أن يصبح مطراناً كان قوالاً، وكان يحب الزجل، وهذا يعني أنه كان يوجد قوّالة في وقته. ومعناه أنه كان يقول معهم، ما يدل أيضاً أنه كان يوجد على الأرض تراث زجلي معيوش وليس ابن الساعة.

بالحـــرب مجـــالي مفتـــوح جـــابهنـــي إن كنـــك رجـــال
لا تحكـــي كلمـــة وتـــروح تلطـــى تحـــت الشمسيـــــة

المؤرخون يرجعون أوزان الزجل إلى ثلاثة مصادر. الموالي التي عرفت وانتشرت بعد نكبة البرامكة في بغداد 782م، وبعضهم يردّها إلى الأوزان التي ابتكرها الزجال العربي الأول في الأندلس ابن قزمان عام 1160 م، وبعضهم الآخر يردها إلى الافراميات نسبة إلى مار افرام

القرّادي موجود في الزجل العراقي والزجل السوري والزجل الفلسطيني، وطبعاً في الزجل اللبناني.

وفي التراث اللبناني، إذا وضعنا الدلعونا جانباً، نجد أن أغلب دبكاتنا تقوم على وزن القرّادي.

عالعميّم علعمام
طير وعليّ يا حمام
يا حمام طير وعلّي
وودي للحلوة سلام

هذا وزن قرادي. "**وعالندا الندا الندا.. دغلية وصغيّر قدا.. وإن ما عطيوني اياكي.. يا جبال العالي لهدا**"، أيضاً الوزن هنا قرّادي.

"**ماني يا يما ماني.. ويلي هب الهوا ورماني..**
بضل بحبك يا أسمر إن عشت والله خلاني".

هنا أيضاً الوزن هو قرّادي.

"**هـــالله هـــالله يـــا جملـــو يـــــا عشيـــــرة زمـــــاني**
خصـــرك دخيـــل العملـــو لـــولـــح يـــا خيـــــــزرانِ "

ولا ولا ولا.. هي أيضاً قرّادي، والزينو الزينو، وحتى الغزيّل نستطيع إضافتها إلى وزن القرّادي.

عشت في فلسطين حوالى الثماني سنوات قبل نكبة عام 1948؛ عشت هناك كشاعر، وأحييت مئات الأعراس والأفراح، وارتبطت بالزجل الفلسطيني بالعلاقة نفسها التي كنت مرتبطاً بها بالزجل اللبناني. غنيت مع أكبر الشعراء الذين تواجدوا على الساحة يومها مثل فرحات سلاّم، مصطفى الحطيني، رشيد المجدلاوي، الريناوي، يوسف عودة وأسماء أخرى. وبعدهم غنّى في فلسطين وسوريا ولبنان يوسف الحسّون، وكنت أعرفه شخصياً، ولطالما التقينا في مدينة عكا.

هذه مقدمة لنشير إلى أن تراثنا الفلسطيني – السوري – اللبناني تراث واحد. التقيت وغنيت في فلسطين مع الشعراء اللبنانيين المشهورين مثل يوسف حاتم، محمد محمود الزين، وغيرهما، وهذا يدل على وحدة التراث. كما إنه في سوريا وحتى الآن لا تزال الأعراس والأفراح تقام بواسطة شعراء من لبنان، وهناك أيضاً في سوريا جوقات تغني الزجل على الطريقة اللبنانية وبالأشكال والأوزان نفسهما.

في فلسطين يقال للقوال "حدًا". الحدى الفلسطيني هو أساس "السحجة" التي تقام عليها الأعراس والمناسبات وهذه على وزن القرّادي.

الحِدى اللبناني المتعارف عليه، يأتي على وزن: "**من فوق راسك يا عروس الطير البيطير بندبحو**".

أما الحِدى الفلسطيني على وزن القرّادي فيبدأ: "**بادي بسم الله العزيز الواحد الحي الديان**". ويرد عليه من الموجودين: "**حلالي يا مالي**". وتستمر المحاورات بهذا الشكل لأيام وسهرات طوال، ولكن يبقى الوزن واحد وهو: القرّادي.

في كتاب **خزانة الأدب وغاية الأرب**، للشيخ تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، صادفت هذه القرادية النادرة جداً، لأن ابن حجة الحموي قد وضعها كنموذج عن البديع في نوع القلاّب في الكلمة يقول:

قلبي بحبو تيّاه ... ليس يعشق إلا ياه
فاز من وقف حيّاه ... يرصد على محياه
بدر السما لو يطبع ... من رام وصالو يُعطب

القلاّب في الكلمة موجود في يطبع ويعطب.

صغير حيّر بأمرو ... غزال قهر بسحرو
ليث الهوى ونمرو ... فاعجب لصغر عمرو
ريم ابن عشرة وأربع ... أردى الأسود وأرعب

القلاّب هنا: أربع وأرعب.

تاريخ هذا المقطع الذي هو على وزن القرّادي، يرجع إلى عام 1278م. يعني بعد ابن قزمان بـ 114 عاماً. هنا نطرح السؤال التالي: هل وصلت نماذج من أزجال ابن قزمان إلى علاء الدين ابن مقاتل، ونسج على منوالها، أم أخذ هذا الوزن من الشعب الحموي (نسبة إلى حماة) الذي كان يتداول هذا الوزن في تلك الأيام؟ لا جواب عن هذا السؤال، لأنه لا يوجد نص مكتوب. ولكن من المعروف أن الناس كانوا يأخذون من بعضهم بالتواتر.

تحدثنا عن قصيدة سليمان الشلوحي عن نكبة طرابلس، وهي أقدم نص زجلي وصل إلى أيدي المؤرخين حتى اليوم.

القصيدة هذه حجتها معها، وشهادتها برقبتها، وهي شروقي. الشروقي من الموالية، فإذا جمعنا شطرين من أبو الزلف، نصل إلى شطر شروقي. من الموالية يصدر، عن: العين موليّتين العراقية، واليادي اليادي، وعالروزنا، وأبو الزلف.

للحب أنت وأنا نغمات سحرية
يضحك بقلبي الهنا لنظرتك بيّا

من وزن الشروقي يصدر في لبنان وسوريا والعراق وفلسطين: الموال البغدادي، الزغاريد، وحِدا جنوبي تغنيه الأم إلى طفلها ساعة نومه، مثل هذا اللحن:

يــا حـــــادي العيــس　　　سلملـــــي علــى أمـــــي

واحكيلهـــا مـــا جـــرى　　　واشكيلهـــــا همـــــي

هذا التراث من حداء أمهات جنوب لبنان، تراث ضخم جداً وغني بالشاعرية. هذه الكلمة عندما تنتقل من فم إلى فم، ومن جيل إلى جيل وتصبح داخل التراث، تعمّم. في ذاكرتي هذا المقطع الذي يقول:

راحـــــو مـــــن الإيـــــد　　　شــو عـــاد الكـــلام يفيـــد

وأصبحـــــت محـــــزون　　　أسكب كل دمعـــة بـــإيـــد

وإن كـــان بيـــوم القيامـــي　　　بنلتقـــــي يـــــا سيـــــد

لأدعـــي ليـــوم القيـــامـــة　　　مـــا يكــــون بعيـــــد

ووزن الموالية نجده في الزجل اللبناني والعراقي والخليجي والسوري والفلسطيني والمصري.

هنا، نحن نفتش عن ينابيع الأوزان المنبرية، طبعاً منها ما لا يخضع إلى عروض **الخليل**، لأنها آتية من تراث يختلف بموازينه عن موازين الشعر الفصيح. لكن لم تزل عواميد المنبر الزجلي تستند على الأوزان الخليلية. هل أوزان الزجل غريبة عن أوزان الشعر الفصيح؟ بالطبع كلا، ومثلما تعتبر العامية ابنة الفصحى، يعتبر الزجل الأخ الشعبي للشعر الفصيح، باستثناء القرّادي والموشح والدلعونا.. إلخ. على المنبر الزجلي تغنى أربعة أوزان: المعنّى من بحر الكامل؛ والقصيد والعتابا من بحر الوافر؛ القصيد القصير من بحر الرجز؛ والشروقي من بحر البسيط.

بعد هذا الشرح عن ينابيع أوزان الزجل المنبري وترابطها مع محيطها العربي، وعلاقتها بالتراثين الأدبي المكتوب والشفهي المتداول، نسمعكم

بعضاً من حوار بين شاعرين كبيرين وهما الشاعر خليل روكز والشاعر أنيس الفغالي. هذه المحاورة تمت في حفلة في انطلياس في سنة 1960:

خليل روكز:

ما بطلع على الجرد ما عندي حنين

وساعة ما بدي بطلع معطّي الجبين

اسمي نبي ومن قبل كانوا الأنبيا

مـــا يطلعـــو عالجرد إلا حافيين

أنيس الفغالي:

تجاهلتني لكن أنـــا اســـمي عريق

ومن كبر عقلي هالحكي منك بطيق

بهنيك في عندك وعي وفكرك عميق

فـــوقتـــنا عالقلب يـــا عهد العتيـــق

بهـــا القلب مـــا كانو الحفـــاة يبشرو

انت حـــافي بس غيـــرت الطريـــق

خليل روكز:

أول نبـــي كانت حياتـــــو معذبـــي　　　وثاني نبي فـــي مزود الراعي ربي

وثالث نبـــي كان لو رسالة طيّبـــي　　　وكلهـــن مشـــيو بطريق التجربـــي

وهلق أنا جاي نبي الشعر الأبـــــي　　　ضيعـــت عاطرقاتهـــن فـــي طيبي

حيث النبي ياللي بيجي بآخر زمان　　　مجبـــور يلقى الضرب عن أول نبي

أنيس افغالي:

أول نبي جاب الشريعة المبهجـــي   وثاني نبي هد التماثيـل ونجـــي
من هالتنين الخير كلـــو بنرتجـــي   ضبطو الدني ووعوا خليقة مبنّجي
وحضرة جنابك يا نبي آخـــر زمان   لنهايـــــة الألفيـــن دورك تايجـــي

خليل روكز:

آخـــر نبي وجايي عدنيا مرجرجي   ورَحّ اخّرْ ظهوري ونغم عزّي الشجي
لما تصير الشمس جمرة ملهوجي   ولما السما بتصيـــر صفـــرا مبنجي
ولما العجوز بتصير بنـــت مغنجي   والعجرمي بتصير مثـــل بنفسجـــي
ولما بيجي الدجال تا يطغي العباد   في وقتها بيصيـــر دوري تـــا إجي

ردّة المعنّـــــى

"يقول الراوي يا سادة يا كرام (باللهجة البدوية) أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان قوم يقال لهم بني هلال، يعيشون من الرعي بطبيعة الحال في منطقة اسمها نجد، تناسلوا وتوالدوا وتكاثروا حتى بات لا يحصيهم عدد. وكان أميرهم يدعى الفتى الحسن الهلالي أبو علي أمير الأمراء وفارسهم أبو زيد الهلالي".

هذه العنتريات.. عنتريات الكلمة الزجلية بالسيف والترس والرمح والحصان، انطلقت في هذه الأجواء التي كانت تغطي سهرات القرى اللبنانية كافة، وسهرات الشتاء الطويل حول كوانين النار ودخان النراجيل، والدخان اللف والشاي والزوفة، هذه السهرات كانت تنقضي على أصوات تقرأ قصص الزير وأبو ليلى المهلهل وعنتر وعلي الزيبق والملك سيف ذو يزن وتغريبة بني هلال. على هذا المنوال أجاب الشاعر أنيس الفغالي الشاعر زين شعيب ما يأتي:

قضّيت عمرك بالمراجل والوعيد
وعاكل تلة عملتْ للتفنيص عيد
ومن كل صفعة أكلتها لو تستفيد

وعندك حيا ما بتقبل الكرة تعيد
يا زين أريحلك إذا بتبقى بعيد
عن معركة تلجاتها لهبة وقيد
وقودها شياطين وملوك وعبيد
وجبال من صوان ومناجم حديد
وبتقول إنك تسر أو أكثر عنيد
وعا قصف عمري مصمم وقصدك أكيد
لو كنت حامل طول يوم الجوع إيد
وبطش نيرون وقسى عبد الحميد
بتموت واقف قبل ما تنقّص نهار
من عمر سلطان المعنّى والقصيد

من هنا، من بداية المنبر الزجلي، كان القوالة يتفاخرون بالسيف والرمح والمهر، وكان للمهر دور كبير، قبل (غاغارين) بزمن، كان قوال الزجل يغزو الجو بحصانه، وياما شكشك نجوم الليل في ذيله خرز. وعندما نزل إلى المعركة على مهره، لولح بإيدو شمالاً ويميناً، وكل شعرة كتّفت أربع فرق.

يقول الشاعر علي الحاج:

في طبّجي شاهد حصاني بطلتو
تشارط معي وقلّي حصانك فلتو
وعند هبجة مدفعو حصاني انطلق
راح ورجع من قبل وصلة كلتو

في ردة القرّادي هذه للشاعر أمين أيوب، يرد فيها على شاعر طلع بحصانه على الجو ولم ينزل، يقول:

يا دلّي مات حصاني   وعم خيل ع سيقاني
وصلّت حصانك للجو   وبعدو تحت الكداني

في عيون الأديب العملاق التي كانت ترى كل ضيعة في لبنان في ذلك الزمان، كان مارون عبود يرى ويقول في كتاب **الشعر العامي**، إن الغناء هو الهيكل العظمي في جسد القرية، فلا عيد ولا عرس ولا مولد من دون غناء وشعر، حتى يصح أن نقول إن لبنان هو جبل الزجل. كما يقول أيضاً: إنه من القليل جداً أن تجد أحداً في القرى يعجز عن قول الشعر العامي، وهذا الشعر يتناول جميع أغراض الحياة: مدح، رثاء، حكمة، ملاحم، فكاهة، هجاء، وحماسة.

حبك غلي يا دار   ع قلبي غلي
وعنقودك الغاوي   علّى إمو حلي
إنتي بيالي بيوت   حلوة مشرعة
وإيدين تغزل نار   يوم المرجلي

ويكمل مارون عبود: أما السهرات والمناسبات الكبرى مثل الأعراس والولادة، فتعد من ليالي العمر، وفي مثل هذه المناسبات يشرب الناس ويغنون العتابا والميجانا والمعنّى والقرّادي والأغاني المختلفة، ويرقصون رجالاً ونساء رقصة الدبكة.

كلمة مارون عبود التي يقول فيها إنهم يغنّون العتابا والميجانا تحتاج إلى وقفة مطولة، لأن العتابا إلى جانب أنها تراث شفهي متداول، كانت منبراً

مرتجلاً وكان المنبر الزجلي في لبنان منبرين: منبر المعنّى من جهة، ومنبر العتابا من جهة أخرى، وكان لمنبر العتابا شعراؤه الكبار وجمهوره المنتشر، وكان في فترة شعبية العتابا على الأرض سابقة على شعبية منبر المعنّى. على كل حال سنخصص حلقة عن العتابا وعن شعرائها ودورها الكبير الذي أدته على المسرح الزجلي.

ما شغلني كثيراً، هو فكرة واحدة وسؤال واحد، من أين وصلت ردّة المعنّى إلى الزجل؟ فرضية لها أهميتها الكبيرة بالنسبة إلى المنبر الزجلي، لأن كل حفلات الزجل منذ ظهور المعنّى، مركّزة على ردة المعنّى. من أين أتت هذه الردة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه.

لدينا من التراث من الوزن نفسه، الميجانا، ولدينا الأغنية التي تقوم عليها الدبكة:

يا ظريف الطول يا بو الميجانا   علقناطر ناطرك صار لي سنة

ولم تزل تعشش وتغزل في رأسي هذه الردّة التي نحفظها من الطفولة والتي تحتوي على كثير من العفوية والجمالية.

يا ظريف الطول لضمك لضم   سنانك الحلوين ملضومين لضم
محبتك يا زين خرقت للعظم   ومـا تشيلها غير قدرة ربنـا

ردة المعنّى أعتقد أن فيها ميزة الرد.

وكما ذكرنا إنه على صعيد المنبر لدينا أوزان تغنى: القصيد الطويل والقصيد القصير. القصيد الطويل آتٍ من جهة التراث، يقول الزير أبو ليلى المهلهل:

"**وقلب الزير قاسٍ ما يلينا، وإن لان الحديد، ما لان قلبي وقلبي من حديد الآسينا**". إذا أخذنا الشطرة الثانية لكي نرد عليها، فلا يرد عليها إيقاعياً، لأنها قريبة من الشروقي. الوزن الثاني هو القصيد القصير ومن قول أمير الزجل اللبناني رشيد نخلة:

لبنان يا زهرة عرب بستان   جنـة مشرع بابها رضوان
كـل أيامـك ربيع خضـرا   وشهـور سنتك كلها نيسان

لا تُرد على إيقاع المعنّى. ومعنى ذلك أن اكتشاف ردة المعنّى له أهمية لأنها تتعلق بعنصر ثانٍ غير الشعراء، وهم الردّادة الذين يغيبون الردّة، ويردّونها.

قلت ذات يوم في إحدى الجميلات:

كرجت عدرب الحب دلوعة فرح
وهب الهوا وشعرك على كيفو سرح
ومن دعستك فرّخ جوانح للطريق
مثل اللي بدها تطير فيك من الفرح

الإيقاع هنا موحد ويشد الأذن إلى السمع، ويجعل من ردة المعنّى المرتكز الأساس الذي قامت عليه منابر الزجل.

تبقى بلدنا تضحك بهاك المدى
وأبقى أنا والليل نمشي ع الهدى
يقلي أنا راح عتم الدني عليك
تلعندهن توصال وما يشوفك حدا

أعتقد أن هذا الوزن الكامل يصلح كثيراً للرد الإيقاعي.

أذكر منذ أيام فلسطين هذه النادرة، كنت في عرس، والشباب لم يكن عندهم أي قوّال، ويريدون أن يقولوا شيئاً احتفالاً بالمناسبة. وكما يقال إن الحاجة أم الاختراع، سمعت الشباب يحدون من بحر الكامل، من شعر عنترة: "**حكّم سيوفك في رقاب العذّل وإذا نزلت بدار ذلّ فارحل**". هذا الترديد يؤكد لنا مدى صلاحية الوزن الكامل أي المعنّى، بشكل يستطيع فيه الردّادة أن يردوا على الشطر الأخير منه، ويكون الأساس لعمار المنبر الزجلي.

العتابا والأبوذيّة العراقية

يا ميجانا ويا ميجانا ويا ميجانا　　　يا روح روحي وسلمي ع حبابنا

إنطلق الزجل اللبناني تاريخياً من منبرين؛ منبر العتابا والشروقي، ومنبر المعنّى والقرّادي.

أول حفلة حضرتها في حياتي كانت في أوائل الثلاثينيات، كانت للجوقة المنطلقة في أيامها والتي توجها الزجل ملكة على عرشه، وكانت الجوقة مؤلفة من أسعد الخوري الفغالي: الشحرور، علي الحاج، أنيس روحانا وطانيوس عبدو؛ في السنة نفسها أيضاً حضرت حفلة لجوقة عتابا، وكانت تضم مشاهير قوالة العتابا في تلك الأيام مثل: محمد محمود الزين، يوسف حاتم، راغب الزهر، وأسعد الموسوي. في تلك الأيام كان لكل منبر مؤيدون وأنصار ومحبذون، وكان يدور نقاش حاد عن أي منبر هو الأقوى والأفضل، منبر العتابا أو منبر المعنّى؟

عيني ما تشوف النوم يا ديب
حاكمها قلق ونعاس يا ديب
وغدا تسرح مع التنيان يا ديب
وتفعل ما تريد وتشتهي

العتابا في التراث، هناك ما هو مغيب منها ومتناقل ومجهول المؤلف أكثر من المعنّى. نادر ما تجد في المعنّى بيتاً لا يُعرف مؤلفه. هذا البيت قديم جداً ويدل على بدايات العتابا. **أولاً**، لا يوجد جناس لأن كلمة "يا ديب" المكررة لها المعنى نفسه، بينما أصول العتابا أن يكون لكل كلمة معنى. **ثانياً**، هذا البيت غير مختوم بحرف الـ "باء" كما في أيامنا، وكلمة تنيان هي جمع كلمة تني وتعني الخروف البالغ من العمر عامين. هذا البيت يذكرني ببيت آخر من التراث يقول:

جابولي الدوا قلت الدوا مر
حاجي تعذبو بقلبي الدوا مر
وجابو الديب تيرعى غنم مور
حط الديب ايدو على خدو وبكي

المفارقة بين هذين البيتين هي: "**غداً تسرح مع التنيان يا ديب**"، و"**حط الديب إيدو على خدو وبكي**"، هي نوع من وعد إبليس في الجنة، أو مثل دعوة "يا دعوة العجوز تصير صبية، قالتلن يا دعوتي اللي ما تستجاب".

في العتابا أبيات قد نسجت من حولها قصص، والبيت التالي قصته تحكي عن شاب أحب فتاتاً رفضوا أهلها تزويجه إياها، فترك البلد ومات في البرّية، وأخذت حبيبته تفتش عليه، وبعد مدة وجدت الجثة راقدة بين العشب النابت حولها وكان هذا البيت:

تعا شوف وتعا شوف وتعا شوف
حشيشة مهجتي دابت تعا شوف
ألا يا لايم العاشق تعا شوف
نبت ما بين صابيعو عشاب

من أين وصلت العتابا إلينا؟ جميع المؤرخين قد اتفقوا على أن العتابا جاءت من الأبوذية العراقية. الأبوذية هي من الجناس نفسه، ولكن قفلتها تختلف عن العتابا وتنتهي بـــ "ي ا". ومن الأبوذية:

هموم من الدمع شربت وأنا ميت
وجروح القلب ما ارتاحت ونامت
حسبوني البشر حياً وأنا ميت
لكن ثوب الصبر ساتر عليا

جناس في القافية **الأولى** وأنا ميت وإن شربت، **والثانية** وأنا ميت من النوم، **والثالثة** وأنا ميت من الموت. إذاً الفرق بين الأبوذية والعتابا هي أنها تُختم بـــ "يا"، ومن هنا يقولون إن مصدر العتابا هو الأبوذية العراقية.

هناك أيضاً حكايات عراقية عن العتابا، وتقول إنه كان هناك فلاح يعمل عند إقطاعي في جبل الأكراد في العراق، وكان هذا الفلاح متزوجاً من إحدى الجميلات اسمها "عتابا". الإقطاعي أخذ من الفلاح زوجته عتابا، والفلاح هام على وجهه واستقر في بلاد عكار في لبنان، واشتهِر عنه هذا البيت:

عتابا بين برمة وبين لفتة
عتابا ليش لغيري ولفتِ
وأنا ما روح للقاضي ولا أفتي
عتابا بالتلاتة مطلقة

الأستاذ منير وهيبي في كتابه **الزجل، تاريخه، أدبه، أعلامه قديماً وحديثاً** يقول: إن العتابا من ابتكار عشيرة الجبور، وأشهر من نظم فيها هما: **الأول**، حمادي الجاسم من عشيرة الجبور، **والثاني**، عبد الله الفاضل من

عشيرة عنزي. كما إن الباحث العراقي محسن جمال الدين كتب في مجلة **التراث الشعبي العراقي** تحت عنوان "ملامح الحياة الشعبية في الزجل اللبناني" قائلاً: إن العتابا الجبورية منسوبة إلى قبيلة الجبور التي ذكرها منير وهيبي.

مع المرحلة الأولى للعتابا يطل علينا إلياس البدوي المعروف بـــ "أبو شهاب".

من هو إلياس البدوي؟ أبو شهاب هو إلياس يوسف شهوان المشعلاني من بلدة صاليما، رحل أهله عن صاليما وسكنوا منطقة بعبدا. تعرف على بدوية اسمها "بندر" وتزوجها والتحق بالعرب (وهنا المقصود البدو) وأخلاقهم وعاداتهم، كان إلياس البدوي على جانب من الذكاء الفطري والصوت الرخيم، وكان عشّاق العتابا يقصدونه ويطلبونه ويدعونه إلى مناسبات الأنس والطرب. كان أبو شهاب على أيام إلياس الفران ومحمد السلطان وخليل سمعان الفغالي والخوري لويس والد الشحرور، ومنصور شاهين الغريّب وأسعد دكروب من بلاد المهجر، ومنصور الصافي، وأمين أيوب، وفدعا صعب وغيرهم. يعني الساحة كانت يومها تعج عجاً بالفوالين الذين رصفوا المدماك الأول والأساسي في عمارة المنبر الزجلي.

على الله تعود بهجتنا والفراح
تغمر دارنا البسمة ولفراح
قضينا العمر ولف طل و ولف راح
وضاع العمر هجران وغياب

من البيتين التاليين لأبي شهاب نتعرف على حركة العتابا في أيامه. وكانت العتابا يومها غير محكومة بالختمة بحرف الـــ "باء"، ونشتم أيضاً

رائحة تراكيب اللهجة البدوية في بيت العتابا، البيت **الأول** يعود إلى بندر قبل أن يتزوجها:

عبالي شوفة المحبوب عبالي
بريد الثوب منكم والعبا لي
ويا بندر كل ما جيتي عبالي
يفيض الدمع من عيني دما

أما البيت **الثاني** الذي نشتم فيه رائحة التركيب البدوي، والمؤلف من قافية من خمسة أحرف، يقول:

عيونك والحواجب والجبي هين
وسنانك عقد لولو والجبي هين
ويا بندر لضيوفك وجبي هين
قبل ما إدبح الغالي شهاب

نظرياً بالنسبة إلى تاريخ الزجل نستطيع أن نقول إن هناك مرحلة أولى ومرحلة ثانية ومرحلة ثالثة، لكن عملياً لا نستطيع الفصل بين هذه المراحل، لأن الجديد يخلق ويربى في حضن القديم، لا يوجد انقطاع بين الأجيال المتواصلة بالعتابا. إلياس بدوي، وأحمد الحاروفي وطانيوس غزالي وأسعد دكروب ومحمد محمود الزين ويوسف حاتم وراغب الزهر وإلياس النجار ورامح مدلج، وأسعد الموسوي ورفعت مبارك. سنعطي نماذج من العتابا التي استقرت على الجناس الصحيح والختمة بحرف الـــ "باء"، مع التذكير أن شعراء المعنّى يغنّون العتابا، وشعراء العتابا يغنّون المعنّى على الرغم من تخصص كل جوقة بنوع من هذين النوعين.

جبل لبنان فيي ولي في

وما بزعل قد ما يعتب وليفي

العتب للقلب صابونة وليفة

غسل توب التجافي بالعتاب

العتابا مهمة جداً ومتعبة في الوقت نفسه، اختيار القافية أو "الربطة" أمور ليست سهلة. كان القوالة يقومون مع بعضهم البعض بـــ "كعّبوات" أو يغنون على الحرف. من الكعّبوات أتذكر هذا البيت:

عباب مراح مبرك كبش غالي

عباب مراح ما بركّب شغالي

عباب مراح ما بركبش غالي

لو إنو ساعتي بليرة دهب

من لا يعرف بالعتابا يعتقد أن هذا مجرد صف كلام، لكن على العكس هذا البيت مشغول لأنه من الجناس. القافية **الأولى**، تعني زريبة الغنم والكبش قد برك أمامها. **الثانية**، أي لا أُركّب أشغالي على باب مراح، أما **الثالثة**، يعني لا أركّب غال أو باب البيت.

من الثلثات التي كانوا يقولونها:

طرقت الباب حتى كلّ متني

ولما كلّ متني كلمتني

قالت أيا إسماعيل صبراً

قلت أيا أسمى عيل صبري

وهي في الأصل: طرقت الباب حتى **كلّ**(تعب) **متني**، ولما **كلّ** متني **كلّمتني**، قالت أيا **إسماعيل** صبراً، قلت أيا **أسمى عيل(نفذ)** صبري.

وكانوا يقولون:

تلاقو بقلب غابة سبع بومات

وراحو تابعزّو سبع بومات

في هذا المجال، أتذكر في الضيعة، أن أحدهم يدعى نعمان والآخر نعيم، كانوا يتبارون في العتابا. وفي أحد الأيام جاء نعيم ليتحدى نعمان فقال:

سألتك ما الاسم وتقول نعمان

وربّي ع جميع الخلق نعمان

فرد نعمان قائلاً:

سألتك ما الاسم وتقول نعمان

وربّي ع جميع الناس نعمان

وقللي يا نعيم هالنيع نبع منّ

اللي بتضل تاكل في هوا

سنسمعكم نماذج من شعراء عتابا قدامى وجدد، راحلين ومتواجدين بيننا، قد خلدوا أنفسهم بالكلمة الجميلة. هذا البيت لأحمد الحاروفي يقول فيه:

جابتلي الخمر قلتلا ما نشراب

عطيني كاس مملوءة من شراب

قالتلي العفو، قلتلا ماني شراب

تا أغفر لك أنا يوم الحساب

يوسف حاتم في حوار عن قصيدته الشهيرة **وضحة الحزينة**، يقول بلسان حمد حبيب وضحة:

يا حيفك تعشقين النذل ولفاين

اللي جيشو عليكم طل ولفين

اعشقي اللي بقحم لأجلكْ ألف ولفين

بفلا ويسطي عليهم كالعقاب

محمد محمود الزين يقول:

ليالي كتير متلك مرّقتلي

وعليهن من كفوفي مر قتلي

وإذا بتريد قتلي مر قتلي

صعب لوك الأسنة ع النياب

أبو شهاب قال:

بلدنا المسك والعنبر منسّم

عديا والهوا فيها من السم

ويا روس حرابنا تقطر من السم

وقليل اللي انطعن فيها وطاب

جوقة الشحرور قالت:

يا حلوة خارج بحورك برمشاي

وشوقي إن كان دولابك برم شاي

وإذا بتزودي قلبي برم شاي

القمر والشمس بعملهن صحاب

ونختتم بهذا البيت الطريف للشاعر الصديق زين شعيب:

تعي إحكي معي ب اليس و الوي

جلسي بجلس وإلوي الخصر بلوي

وإذا قالو هوا الحلوين بلوي

ابعتولي ألف بلوة ع الحساب

أول زجلية قبل المنبر المحترف

عام 1928، تألفت أول جوقة زجلية محترفة وهي جوقة شحرور الوادي. كان للزجل اللبناني دورٌ كبيرٌ في توحيد اللهجة اللبنانية من خلال توحيد اللهجة المنبرية. وبسبب الزجل نشأت صحافة ناشطة ربّت جيلاً كبيراً من شعراء الكتابة والمنبر، وكان لشعراء الزجل الدور الكبير في خلق الأغنية اللبنانية المميزة التي انتشرت في كل أنحاء العالم العربي، وكانت قدوة لكل العاميات العربية لخلق أغنيتها الخاصة المميزة.

كان المنبر الزجلي وما زال حتى اليوم يسد فراغ المسرح التمثيلي، ويملأ فراغ الطرب، لكن لا شيء يملأ فراغ الزجل، وهذا دليل واضح على عمق شعبية الزجل اللبناني في قلب الشعب اللبناني. من بيت العتابا تعمّر منبر العتابا وأصبح له جوقات، ومن ردّة المعنّى تعمر منبر المعنّى وأصبح له جوقات. كانت حركة التطور في منبر المعنّى أكبر وأوسع من حركة التطور في منبر العتابا، لخلو المعنّى من الجناس، ولأن شاعر المعنّى وفي خلال لحظات يستطيع أن يركز على الجواب الذي يريده، بينما شاعر العتابا يقع تحت صعوبة الجناس واختيار القوافي الثلاث والختمة بـ "الباء"، ما يجعل من الأمر أكثر صعوبة لخلق الجواب المناسب بالسرعة المطلوبة وإيصاله.

من هنا، ومنذ أوائل الخمسينيات حتى أوائل الستينيات من القرن العشرين تراجع منبر العتابا قليلاً لصالح منبر المعنّى. وفي الستينيات لم يعد على المنبر جوقات عتابا متكاملة، وكانت النتيجة أن المنبر الزجلي استولى على العتابا والشروقي، وأصبحا يستعملان كوصلة غزل قبل ختام الحفل.

ذكرنا أن العتابا جاءت من الأبوذية العراقية، والمؤرخين اتفقوا على ذلك. لكن من أين وصلت إلينا ردة المعنّى، هل هي آتية من التراث العربي العام أم من مكان آخر. فتشت في الزجل المصري، وعثرت على قطعة لبيرم التونسي من كتاب **على باب الجامع**، والقصيدة تحت عنوان "عيد ميلاد". يقول أشعر وأقدر من كتب كلمة الزجل المصري:

حفلة ميلاد بنت أختها يوم الأحد

بدعوة من جوز أختها عبد الصمد

تحضرها أو نصبح ونمسي في نكد

حفلة ميلاد يا ناس وإحنا ناس عُمد

طبعاً قيلت باللهجة المصرية، لكن وزنها كان المعنّى. ومن الزجل الخليجي، يقول الشاعر القطري محمد بن جاسم الفيحاني:

صار حبو في ضميري له مقيل

قلت لمن حل نشدّ النزيل

يوم أصبح قال يا بعد الرحيل

منزلي منك على طول الحياة

أيضاً هذا الوزن: معنّى.

مبارك بن حارث المنصوري شاعر الإمارات يقول:

زايد بن سلطان زخري وعزوتي

لو كلحت ظلفن الشفا عن نابها

هو شيخنا يا ناس والله ربنا

وحكم غيرو ما نداري عتابها

والبيت الثاني: "**لو كلحت ظلفن الشفا عن نابها**" تعني: لو كشفت الأيام عن أنيابها.

وهو زجل باللهجة الخليجية لكن على وزن المعنّى:

حيث المعنّى سجّلو شريط الزمان

خلو الزمان يكون عنّا ترجمان

تاعند ما الجملة الجميلة تنعرب

يكون الزجل موضوع في صدر المكان

عندي زجل شعر الحياة بلهجتو

ياما هدا كل البشر في رهجتو

ما بينمضا الشاعر بصفحات الزمان

حتى القوافي تنسلخ من مهجتو

وهما من أقوال الشاعرين علي الحاج القماطي، وأنيس روحانا.

"إبليس أب كل الطغيان"، قصيدة المطران جبرايل القلاعي اللحفدي من وزن القرّادي ولا تقبل أي شك، القصيدة لا تحمل وزن المعنّى الذي نفتش عنه، لأن لا وجود لمنبر المعنّى من دون الردة التي تعمّر منها. عمر المنبر

الزجلي بدأ كاحتراف في سنة 1928، والله وحده يعلم منذ متى كان موجوداً من قبل هذا التاريخ؟

في التراث لدينا على هذا الوزن لحنين: الميجانا ودبكة يا ظريف الطول.

يا ظريف الطول ويا بو الميجانا

يا بو العيون السود شو بحبك أنا

ويا ظريف الطول طولك هدني

وكنت رايح في طريقي ردني

وهلّا وهلّا يا دني شو هالدني

جافيتنا ونسيت أيام الهنا

جافيتنا ونسيت أيام الهنا: الوزن معنّى مثل الميجانا. أركز على ردة المعنّى لأنه لم يكن هناك منبر للمعنّى لولا وجود هذه الردة. قبل المنبر المحترف كان القوالة يلتقون ويغنون المعنّى فحسب. كانوا يغنون المطلع، والمطلع على الوزن نفسه من سطرين، ثم يتعمّر من الشطر الثالث من البيت، بيت ثانٍ يختم على قافية المطلع.

الخصم الذي يرد أي(الشاعر) يعود ويفتح مطلعًا آخر، ويعطي كل ردة الجواب المناسب. هكذا كانت تقام حفلات الزجل القديمة.

رشيد نخلة أمير الزجل اللبناني قال إن أول زجلية ولدت في جنوب لبنان، هذا الكلام مسجل في **مقدمة** ديوان أمير الزجل اللبناني.. هذه الكلمة لا أحد يشكك في صحتها، ولكن **المؤرخين** يقولون إن هذه الكلمة صحيحة ولكن لا يوجد نص مكتوب يدل على ذلك. أعتقد أن كلمة أمير الزجل رشيد نخلة تتناول قضية واحدة. إن أول زجلية وجدت في الجنوب تعني أن أول ردة

معنّى قد انتقلت أو كتبت في الزجل على وزن المعنّى. حول هذه المسألة يوجد أكثر من مثل، منه: "إذا أردت الكذب أبعد شهودك"، أمير الزجل قد غادرنا منذ سنة 1935، وتاريخ الزجل أبعد، وإذا أردنا إثبات أن ردة المعنّى قد انتشرت من الجنوب، نأخذ المثل الآخر الذي يقول: "شي بدو شهود، وشي شهودو منو وفيه".

في ديوان أمير الزجل رشيد نخلة، أكثر من 75 في المئة من قصائده مكتوب على وزن المعنّى وبخاصة رواية محسن الهذان، محتمل وممكن أن تكون كلمة رشيد نخلة أن أول زجلية وُجدت في الجنوب هي من هذا المنطلق.

ولدينا شاهد ثانٍ من قصيدة عمرها أكثر من 150 عاماً، وسنعرف التاريخ عندما نقرأ القصيدة، وهي لشاعر من بكاسين في جنوب لبنان يدعى رومانوس حنينة، يقولون عنه إنه تغلب على كل قوّالة زمانه، ومعنى ذلك أنه كان هناك الكثير من القوالين في الساحة. وأن الشيخ بشير جنبلاط استدعاه وألبسه عباءة مذهبة ولقّبه بـــ أبو علي.

المهم، أن تاريخ هذا القول يعود إلى تاريخ غزو الجراد للبنان، وأن القصيدة هي من الوزن الذي نفتش عنه وهو وزن المعنّى. القصيدة تقول:

واه وا ويلاه من جور الزمان
ببكي وبتحسر على طول المدى
بعد الهنا والعز وأيام السرور
اتبدّلت تلك الصفاوي بالنكد
قد ما قسيت قلوب العالمين
قسّى إله العرش قلبو ع العباد
يللي بقول الله كريم وبتنفرج
كل ما كان الزمان الهم زاد

الياس الفران شاعر الوطنية

إذا انطلقنا من المثل القائل: "كل جيل مع جيله يلعب"، يكون العصر الزجلي الأول هو عصر إلياس الفران ومجايليه. إلياس الفران من دير قوبل من مواليد 1858، كان يحمل كل صفات القوال الممتاز والمميز. ممتاز بسرعة الخاطر والصوت الجميل والحضور المنبري، ومن يحمل هذه الصفات كانوا يقولون عنه "عروس المنبر". إلياس الفران كان قوالاً ممتازاً وكان عروس المَنبر، وكان مميزاً لأنه كان يقرأ ويكتب، في حين أن أغلب القوالة في ذلك الوقت كانوا أميين أو أنصاف أميين، وبفضل ميزة الكتابة كتب لنا إلياس الفران أغلب قصائده ومراسلاته.

في تلك الأيام، أيام إلياس الفران لم يكن هناك وسائل للتسلية مثل الراديو أو التلفزيون أو السينما أو المقاهي... إلخ، فكان الزجل بالتالي هو سيد الساحة، ولم تكن تقام أي مناسبة أو فرح من دون قول أو قوالة، فالقوال بكلمته وصوته كان يعمّر جميع المناسبات.

في مرة تأخر إلياس فران عن عيد مار ساسين في بيت مري، وعندما وصل الفران قال له القوال المعروف في تلك الأيام ابن رومية أبو جبور:

يا إلياس مار ساسين عاقد حاجبو
سامع كلام عن حضرتك مش عاجبو

خبروه ع العيد ما بدك تجي

والعيد مين بدو يقوم بواجبو

رد عليه الفران وعمرت ليلة عيد مار ساسين بقول القوال:

عمرها بايدين تعلي بسواعد بالمجد وبالقصر المارد

عمرها تضحك بيادرها

عمرها بجوانح بيضا بمحبة

سامح يكبر حبة حبة

عمرها وزين قناطرها

في أيام إلياس الفران كان القوالة كثراً. لكن كان يتصدر الواجهة أربعة أسماء: إلياس الفران من دير قوبل، محمد السلطان من العبادية، نعمان فارس من ددّة في البترون، وقوال كان يعرف بلقبه وهو "أبو حماسة". ولا نعرف شيئاً عن أبي حماسة إلا لقبه وحسب.

وأكثر ما كان يجمع هؤلاء القوالة هي المناسبات الدينية: مثل عيد سيدة خلدة وعيد مار ساسين وعيد سيدة بحمدون، وعيد سيدة مغدوشة، وعيد الأضحى في حرش بيروت. هذه المناسبات كانت تجتمع فيها كل الفنون الشعبية مثل الدبكة والرقصة والمجوز والسيف والترس والناي. ولكن كان العمود الذي تأسست عليه هذه الأعياد هو القوال، وفضل هذه الأعياد كبير على المنبر الزجلي، إذ بدأ منها ومن خلالها. وكان إلياس الفران يلتقي بزميله القوال محمد السلطان، لكن لم يكن يلتقي مع نعمان فارس نظراً إلى بعد المسافة بين ددّة في البترون وبين دير قوبل، وبخاصة في تلك الأيام حيث لم تكن هناك وسيلة إلى التنقل إلا عربات الخيل، ورزق الله على العربيات.

رزق الله على العربيات

وعا إيام العربيات

من بيت ستي لبيت جدي

كالو يضلو ثلاث ساعات

إذا كانوا "من بيت جدها إلى بيت جدتها" يحتاجون إلى ثلاث ساعات، فكم ترى يحتاجون من الوقت من ددّة في البترون إلى دير قوبل؟

إلياس الفران كان مرآة عصره الصافية، ولم يسبقه أحد كقوال، فهو مبدع في الحوار، وبالغزل أرق من النسمة المارة على طبق الورد، وبالنكتة يعقص مثل الدبور، وفي الوطنيات قوالٌ لم يصل إلى مرتبته أحد.

في الغزل له هذه القرادية في وصف الماركيز دو فريج، لأن قول القوالة – ولا تعجبوا – كان يدخل إلى القصور الكبيرة التي تتذوق الكلمة الجميلة. يقول الفران:

يا من فيك الحسن التم

وعندك حطّط رحالو

إنشاهد حسنك بدر التم

حالاً بيخبي حالو

نلاحظ هنا الجناس في الحسن التم والبدر التم.

ويكمل:

شَعرك عكتافك منحل

في لون الليل الحالك

لو شافو السبع بينحل

ويتضيق فيه المسالك

حرير عنداري والحل

ما بيلزملو مسالك

والله عليه انعامو حل

وفرّق خزاين مالو

وفي وصف الشعر الأشقر الطويل نجده في هذه الردة الشاعرية والنعومة والسلاسة يقول:

من جبينك طلّو الأنوار

وصار بالدنيي يفيض النور

وأضحى جنح الليل نهار

وصرنا نشوف الدنيي بدور

ونقابك أبيض طيار

وشَعرك ع الموضة مظفور

إمو من بيت الأشقر

وبيو من بيت الطويل

ومن بعض ما قاله مع محمد السلطان:

بيقولو عني فران — بعمري ما مسكت الراحة

وبيقولو عنك سلطان — بعمرك ما شفت الراحة

زاره مرّة الأستاذ إبراهيم الحوراني، فوجده جالساً وراء النول يحوك الأجة (نوع من القماش القديم يشبه الديما). يقول الحوراني:

شفت الدب حرير يكب

عم بيحيك ألاجة

وفوراً رد عليه الفران قائلاً:

يلعن بي الدهر الدب

ال عمل متلك خواجة

إلياس الفران كان الخميرة الطيبة في عجينة المنبر الزجلي، مهد وعمّر وربى جيلاً من القوالة على الرغم من أنه لم يحترف المنبر. الذي يذهلك في قوله الوطنية الصادقة الصافية، والنظرة إلى أمور تعتبر في زمنه معجزة. ونقول إن القوال البسيط كان بكلمات بسيطة يعبر عن كل آمال التحرر من نير الاستعمار التركي.

يقال إن الفران كان يستعمل اسم زميله محمد السلطان لكي يهاجم السلطان العثماني. مثلاً:

دوّرت عا لعنة صرت أبرم سنة

حتى وجدتا وصرت فيها اعتني

وعملتها لمحمد السلطان تاج

تلبق لراسو كل ما الدنيي دني

وهنا نجد تورية بين اسم محمد السلطان وبين السلطان الذي يقصده.

كانت قصائد الفران تتفجر وطنية وحقد على الاستبداد التركي. كان يقول:

واجب إذا كنا قوم

نعرف معنى القومية

حاجي خمول وحاجي نوم

وحاجي قلة خصية

تا ما نوقع تحت اللوم

من ذرية لذرية
ما في إلنا غير اليوم
نناقش فيه الترك حساب

وترك إلياس الفران لبنان وسافر إلى أمريكا عندما بدأ السفاح يعلق المشانق في ساحة البرج، وخاف من أن تصل إليه يد السفاح. ولم يعد.

ومن الغرب لم تنقطع قصائد الفران الوطنية، القصائد التي تدعو إلى الوحدة الوطنية الصادقة والتي تنير أفكار الناس. والقصيدة التالية كأنها قيلت الآن:

يا عالم حب الأوطان
مالو مدخل بالأديان
واجب أن المرء يكون
في حب الوطن قتلان

صار إلنا ميات سنين
نصارى وإسلام خصام
ما في ساعة مرتاحين
لا نصارى ولا إسلام
وقوم الأتراك ملاعين
فرق تنفذ بالأحكام
وإنتِ ونحنا غفلانين
ولا واحد منا يقظان

لو وضعنا أي اسم مكان اسم تركيا ، لوجدنا أن إلياس الفران ما زال موجوداً بيننا.

الناس بسيدو ويحيدو
من عدا انتو ونحنا
وبيترقّو وبيزيدو
ونحنا بنفضل مطرحنا
عن هالضغاين حيدو
وحاجي التركي يدبحنا
شو كان يطلع بإيدو
لو كنا صحاب وإخوان؟

يا كل من ناطق بالضاد
قومو الكل بوج عموم
الكلمة كلمة قراب بعاد
إصحو حسو يكون موهوم
العرب أبطال وأنجاد
بيشيلو من إليابس زوم
إنسو وتناسو الأحقاد
وادعو الماضي بالنسيان

يا إسلام و نصارى
امتثلو في ذاك المرحوم
زكريا طبارة
من ذكرو بالفخر يدوم
في صريح العبارة
بدنا نهضة بوج عموم

يمّا منفضل أسارى
في حوزة بني عثمان

الواجب أنو المرء يكون
قتلان بحب وطانو
وما يحمل بالقلب غبون
ويحلب صافي لإخوانو
يا عالم لبنان جنون
الجار يعادي جيرانو
وحسام الغازي المسنون
يذبح برقاب العربان

يا رجال لبنان الأعراب
إن كنتو ستعشر أمة
كونو إخوة وكونو صحاب
بتستدعي الحالة الهمة
والديان رب الأرباب
شو راح من حق الذمة
رح نعملهن فرد كتاب
إنجيل عيسى والقرآن

في شعر الفران خميرة تراثية من روح المنبر الزجلي تنعكس علينا حتى الآن على الرغم من بعد المسافة بيننا وبين إلياس الفران، نشتم في زجله الوطني رائحة روح إلياس الفران.

يا لبناني أنا خيك يا خيي
وشراكة بمشكل وحل وقضية
تعا نحل المشاكل بالصراحة
بصدق واتفاق وطهر نية
انطرد آدم وحوا بالصراحة
من الجنة من القلعة الهنيّة
بذكا شيطان ع شوية إباحة
ومكر حية ع تفاحة شهية
وعلى قايين كان للشر لاحة
وكان البيت قلعة عائلية
وهدّ الشر قلعة بكل راحة
على خيين كل واحد بنية
وطنّا اللي برغم ضيق المساحة
انبنى من الحرف قلعة شاعرية
فتحنا بوابها تتصير ساحة
وفريق بقلب لعبة جهنمية
بدلنا عرسها الأبيض مناحة
ودلقنا الحبر ع الطرحة النقية
ورغم كل البلاغة والفصاحة
كنا المجرم وكنا الضحية
انضربنا بدون رحمة ولا سماحة
من الرب اللي إلنا بالسوية
جزا للنّاس عا كثر الوقاحة

بتقسيمو ع ستعشر هوية

وبيروت الشرايع والسياحة

القلعة الشامخة المتوسطية

اللي فيها تعلم البحر السباحة

وسمكها يسهر وتغفى الموية

فلحنا وجها الأبيض فلاحة

وزرعنا مطرح الوردة شظية

وخلينا العروس المستباحة

دجاجة قن تغفا من عشية

على الرغم من بعد المسافة بيننا وبين إلياس الفران نشعر بالتقارب "جزا الناس على كثر الوقاحة، بتقسيمو ع ستعشر هوية". وهو من يقول: نحن أبناء وطن واحد وشعب واحد وتراث واحد، القول الذي قاله إلياس الفران يعيش في ذاكرتنا ويستمر. شمعة حياة إلياس الفران انطفأت، لكن شمعة الوطنية في قول إلياس الفران ستظل وستبقى مضيئة.

شحرور الوادي في مصر

لبنان ما عندي وطن بمعزتو

ومحلى التظلل تحت فيّة أرزتو

لاسبد يا لبنان ما نرجع نقول

نيال من لو فيك مرقد عنزتو

هذا البيت المحفور في ذاكرة كل من يحبون قول القوال لا ينتسى، هذا البيت لشحرور الوادي، والزجل المنبري مظلوم ومهضوم حقه أدبياً، فلم أقرأ أي دراسة عن الزجل المنبري.

الزجل المنبري ابن ساعته، يحفظه المتذوق وينتسى مع الزمن، وعلى الرغم من كل ذلك إن الموجود من قول الشحرور مدرسة كبيرة وتحتاج إلى دراسة.

عند القوال المنبري تجد الحس الوطني الصافي، والنظرة الواعية لكل الأمور.

لنأخذ بعض المحطات التي لها أهمية من وجهة نظر شحرور الوادي اللبناني العربي؛ فوحدة لبنان وشعبه تجدها في قول الشحرور عن الشهداء:

جاهدو وعاشو سوا

ولبسو شعار حب التآخي

وأقسمو عليه اليمين
وفضّلو عن لبس ثوب المستعار
نيقًا بأعراس الفضاء معلقين
ومن تحت حبل المشنقة قالو شعار:
يا بني الأوطان كونوا موحدين
لا بد بعد المشنقة وبعد الدمار
ينهض وطنا ويظهر الحق المبين

وهللي مضو وكانوا لها الأمة منار
وراحو ضحايا الغادرين الظالمين
علمونا ع الثبات والاقتدار
وبعدنا ويا للأسف متعصبين
في قتال وفي صياح وفي نقار
ضارب طنابو بينا بليس اللعين
مبدا التعصب عيب بالعالم وعار
بمحبة الأوطان كونو مؤمنين

ويختتم بأجمل بيتين:

عاشو سوا وشربوا سوا كاس المرار
وماتو سوا بقبورهن متعانقين
وكلهن بعد الفنا والاندثار
أموات أحيا ونحن أحيا ميتين

القوال ابن الشعب، وضد التغريب وضد قلعه من تراثه الوطني، وضد تهجيره من تقاليده الشعبية وعاداته الوطنية. على أيام الشحرور كان قد بدأ

الغزو الغربي الروحي لبلادنا.. بالقبعة وبالرقص الأجنبي (الفرنجي). ومن قصيدة طويلة لأبي الطربوش التي يمجد فيها زيّنا الوطني، وعملنا وشغلنا الوطني، وعاداتنا القروية يقول:

يسعد صباحك يا أبو الطربوش
لقمطتو فجة حرير منقوش
ما ألطفو ومحلا العبا البيضا
في بيت بجلود الغنم مفروش

يتحدث عن كل أشيائنا الحميمة في القرية، ويمر على الأيدي التي تعمل في جني المواسم، بالحصيدة، بالدرّاسة، بالجاروش، ويقول:

جبناك تدرس على البيدر حب
والبنت بالشغل متل الشب
وعايشين بمروج فضل الرب
بتروح سعدى بتطحن القمحات
والبرغلات بالبيت ع الجاروش

في مهاجمة التغريب، نجد هذه المحاورة بين الشحرور وإلياس القهوجي عن رقصة كانت شائعة في تلك الأيام وهي رقصة "التشارلستون"، يقول الشحرور:

شغلة متل الحزورة — يا إلياس بهالمعمورة
بترغب رقص الشارلستون — ولّا مشق الزعرورة؟

القهوجي بدوره يختار ليس من باب التحبيذ ولكن لفتح باب الهجوم، فيقول:

برغب رقص الشارلستون ودغـري بركض عالكريون

بتفـرّج وبكـون ممنون وبنقـل من صورة لصورة

يرد الشحرور:

رقص الشارلستون مش رقص

كلو عيب وكلو نقص

يخرب بيتو بيعقص عقص

وعقصاتو مش مستورة

هذه القرّادية الطويلة، فيها كثير من المرح، ولكن القفلة جميلة جداً من ردتين، يقول القهوجي:

خفف من حكيك وارتاح

ما بينفع فيك الإصلاح

الفلاح بيبقى فلاح

لو تخرّج من عينطورة

ويرد الشحرور قائلاً:

لا تقول بيّك يا ديني

فرنجي برنيطة وزيني

بيك أصلو جزّيني

والجدّ من العاقورة

في قول جميع القوالة، من سليمان الشلوحي عام 1270م، حتى رومانوس حنينة، ورشيد نخلة، وإلياس الفران والشحرور وعصره، لبنان الزجلي، ليس ذو وجه عربي كما اخترعها بعض السياسيين. الزجل في لبنان عربي الوجه والقلب واللسان، عربي التراث.

عندما زارت جوقة شحرور الوادي مصر، وأقامت حفلتها في قاعة الأوبرا، كانت افتتاحية الشحرور تقول:

قلب الجبل يا مصر فيكي هام

وكل قلب بأهل بر الشام

مع كل موجة وكل هبة ريح

يهدو حنين الأرز للأهرام

مع كل موجة وكل هبة ريح

قلوبنا بأسرارها بتبيح

وطيور ع نغماتها بتصيح

نحنا العرب والشرق مرتعنا

مهبط الآيات والإلهام

نحنا العرب والشرق مرتعنا

إلا طريق الحق ما تبعنا

نحنا العرب من سائر الأزمان

منخلق وعزة نفسنا معنا

نحنا العرب إلنا رفيع الشان

نهد المكارم والوفا رضعنا

نحنا العرب يوم الوغى شجعان

اسم العرب في فعلنا رفعنا

نحنا العرب بالسر والإعلان

لو حكينا الدهر يسمعنا

نحنا العرب لازم نكون إخوان
وغير التآخي ما بينفعنا

نحنا العرب لو اختلفت البلدان
لغة القرآن تجمعنا
وعند الشدايد مصر مرجعنا
يا مصر يا أم العلا والمجد
فيكي السيوف معانقة الأقلام

بالطبع لم يكن الشحرور في قوله يمدح بعض السياسيين العرب، هؤلاء العرب الذين يتواجدون في كل مكان، والبعض منهم موجود في لبنان، لم يوفرهم الشحرور، فبدلاً من أن يعمروا لنا وطناً، نصبوا لنا خيمة الطائفية، هؤلاء يقول عنهم الشحرور في قصيدة النواب:

نزلت النواب ع ساحة علي
وكل فارس فوق مهرو معتلي
والوطن مسكين عم بيقول
العز إلكم والشقا كلو إلي

والوطن مسكين عم بيصيح آخ
دنقت برد وتوبنا المنشور باخ
والجمل بالأرض تحت الحمل ناخ
وبعدكن يا هويدلك يا هويدلي

بعدكم كل مين نفخ شبابتو
وعمّا يغني ع جمل حبّابتو

والأرز لو رحنا حفرنا ترابتو
منوجد شلوشو معطشة ومدبلة

ويحكي عن مشتريي النفوس والأصوات فيقول:

بيطرحو وبيشترو تذاكر نفوس
وبودّعو أم العريس وأم العروس
يا أخي لا تبيع صوتك بالفلوس
بيع الضمير بيجرنا للبهدلة

يا أخي يكفي خمول آن الأوان
النوم عار تحت الإضامة والهوان
حنطة بلدنا تغلّب عليها الزوان
حاجي كسل هالقمح بدو غربلة

إنشاء الله تغلق جميع هذه الدكاكين التي تتاجر بالشعب، وأن يبقى دكان الشعب الأصيل، الشعب اللبناني.

ومن سرعة خاطر الشحرور وبداهته نسمعه في حفلة من الحفلات يرد على واحد من الجمهور، قال له:

صار لي سبعة ثمان شهور
قاعد بالضيعة ناطور
وصالي ديك البارودة
وناطر تيمر الشحرور

يرد عليه الشحرور بسرعة البرق:

بدك شحرور الوادي
ولّا شحرور العادي

شحرور لبعلمك منو

حارق قلب الصيادي

وعندما زارت الجوقة مصر قال:

نحنا اللبنانيي رجال

ولو كنا بالعد قلال

أرزتنا من بلحة مصر

بتاخذ رمز الاستقلال

وفي مصر التقى بطه حسين، فقال له:

وحياتك يا طه حسين

الأغلى من عيوني التنتين

عين وحدي بتكفّيني

خد عين وخلّيلي عين

كان هناك شاعر من البترون اسمه إبراهيم نجم ويلقّب بـ "الفارس المجهول"، كان في كل حفلة يقول ردّة ويهاجم الجوقة، قال للشحرور في إحدى المرات:

الخوف مستولي على زيد وعمر

ومحزمو ومزنرو متل الكمر

أطلقت مهري للسما سار وجرى

وبيني وبين الرب باقي تلات نمر

وعلى الفور وبسرعة بديهته أجابه الشحرور:

ضيّعت عقلك من شراب الخندريس

وسرجت مهرك قبل ما يحمى الوطيس

بينك وبين الرب باقي تلات نمر

هيدي النمر شحرور والحاج وأنيس

الرؤية الشعرية الصادقة تجدها في قول القوالة، رؤية من دون زخرفة أو زوزفة أو روتوش، لأنها نابعة من قلب الشعب ومن قلب الواقع الحي.

القرادية التالية عن بيروت في سنة 1927، هذه القرادية للشحرور يتكلم فيها عن نكبات تلك الأيام، نكبات الكوكايين والحشيش والمخدرات لينبه ويحذر. قال:

يا بيروت المنسية

يا عروس المجلية

صرتي جثة من دون روح

فوق فراش المنية

صرتي جثة من دون روح

عليكي غبار الموت يلوح

يا غبن الجمال يروح

وانتي بعدك صبية

طعنو صدرك بالسكين

وكانو عنك غفلانين

ياما شم الكوكايين

خلى عصابك مرخية

كوكايين وحشيشة

بالسيجارة والشيشة

حرموك طيب العيشة

والهنا والكيفية

كل أنواع الفيها سم

استعملتيها شرب وشم

حتى تسمم كل الدم

وعنك الحكمة ملهية

عملو الغطا والتكفين

كريب جورجيت وكريب دوشين

وقصو شعور الماجدولين

وعملو منها خديدية

ويتحدث عن الشهداء الذين دفنوا في الجناح:

أما كنوز الثمينة

يا بيروت المسكينة

بظل جناحك دفينة

محبة بالوطنية

إنها قرادية طويلة جداً، لذلك نختتم بهذا البيت المفصّل على مقاس حالتنا ولو بعد زمن على غياب الشحرور. يقول لبيروت:

تابوتك عند البايع

من صناديق البضايع

وبستانك أصبح شايع

مأوى لكل الغربية

علي الحاج وشحرور الوادي والجوقة

لما شرف أسعدنا

من بعد الفقر سعدنا

بِـ تشريفك صارلو الدهر

تنعشر شهر بيوعدنا

هذه ردة قرّادي بسيطة، ترددت كثيراً على ألسنة اللبنانيين، وما من لبناني لديه صديق يدعى أسعد إلا وأسمعه هذه الردة.

هذه الردة دخلت إلى تاريخ الزجل من الباب الواسع، لأنها كانت مفتاح باب التعارف بين أكبر ركيزتين تعمّر بهما منبر الزجل اللبناني: أسعد الخوري: شحرور الوادي، وعلي الحاج.

لما شرف أسعدنا

من بعد الفقر سعدنا

بِـ تشريفك صارلو الدهر

تنعشر شهر بيوعدنا

هذه الردة وجهها علي الحاج إلى الشحرور من دون سابق معرفة في حفلة أقيمت في فندق النجّار في عاليه عام 1928.

وكالمعتاد سأل الشحرور عن اسم قائل هذه الردة، فأجابوه: علي الحاج، وطلب منه أن يعتلي المنبر، لكن علي الحاج اعتذر، وانتهت الحفلة وذهب كل إلى منزله سن دون أن يحصل تعارف بين الشحرور وعلي الحاج.

وفي السنة نفسها وفي منتزه عين الرمانة المعروف بين عاليه وبين القماطية ضيعة علي الحاج، كانت تقام حفلة ثانية وكان علي الحاج حاضراً، ويبدو أن الشحرور قد عرف بوجود علي الحاج، وسنترك علي الحاج يروي لنا قصة انضمامه إلى جوقة الشحرور بعد هذا الحفل، على الشكل التالي:

"كانت الحفلة بلشت وكانت طاولتي بعيدة عن المنبر، بيجي شاب من عندنا من القماطية ويقول لي: الشحرور بدو يتعرف عليك، قلتلو: الشحرور هلق ع المنبر، وتا تخلص الحفلة بنشوف، وراح ورجع وقللي: الشحرور بدو ياك هلق، وما حسيت إلا الشباب حملوني وأيعدوني على الطاولة بوج المنبر. وكان من جملة الموجودين على هالطاولة الخوري لويس بيو للشحرور. ولمعلوماتكم الخوري لويس كان من كبار القوالة في زمانه. كانت الجوقة مؤلفة من إلياس القهوجي وأمين أيوب. وكان أمين عم يغني وبس خلّص وقف وبعتلي الدف. وبعتة الدف بالماضي كان إلها مغنى كبير، ما فيك تردو ومفروض فيك تقول شي. تفاجأت وبلش قلبي يدق بسرعة وصار يكدني العرق، وعلقت عينين الناس فيي، وتطلعت بالخوري لويس واستوحيت الأحداث الطائفية الدامية أيامها وبلشت قول":

يمين السعد جاءت بالعطايا

سعينا سعي وهجرنا المطايا

وجينا نعترف للأخ أسعد

بلكي بتنغفر عنّا الخطايا

بلكي بعد هاك الفقر نسعد

باليلو بقلبي الحاج معبد

مضوى شموع عل الأربع زوايا

مضوى ومهجتي كانت شموعي

وتأسست عا صخرة ضلوعي

وكتر ما زاد في حبو ولوعي

علينا طلة الشحرور كانت

متل طلة أمير على الرعايا

"وكملت ردة المعنّى، واتجهت إلى الأب لويس قائلاً:

الحاج ابن الأب قاصد يهتدي

تنسن للعالم شريعة واحدة

مد إيدك من بعيد لصافحك

حتى تصير الناس فينا تقتدي

"وبس خلّصت وقف الخوري لويس وتطلع بالشحرور وقللو: يا أسعد دير بالك من هيدا. وابتسم الشحرور وأجابني على الوزن والقافية:

يا ابن الحاج يا زين البرايا

حقيقة ناصعة من دون مرايا

القماطية بها الطلعة البهية

فاقت عالمداين والقرايا

لازم لقّبك رب الحمية

لأنك شهم محمود المزايا

إنت بمحبتي صفيت النيّة
وانت من خلقتك صافي النوايا
بزمانك ما صدر منك خطية
حتى تعدها من هالقضايا
باني معبد محبة نقية
حجارو القلب وبوابو الزوايا
وبترجاك تقبل هالهدية
باب الحب من شحرور وادي
وبكرا يا علي بعيد الضحية
حسبني كبش من بين الضحايا

بالجوامع رتلو ألحانها
وبالكنايس يصمدو قربانها
لو كان كل الناس متلك يا علي
بيخلطو إنجيلها بقرآنها

من هنا بدأ مشوار جوقة شحرور الوادي، أول جوقة تحترف الزجل، بعد أن اكتملت بعناصرها الأربعة المتجانسة بالفكر والمتقاربة بالعمر، كانت الجوقة قبل علي وأنيس وطانيوس مخضرمة، إذ كان إلياس القهوجي وأمين أيوب أكبر سناً من الشحرور، بينما كان أفراد الجوقة الجديدة متقاربين في السن، فالشحرور من مواليد عام 1894، وعلي الحاج من مواليد عام 1900، وطانيوس عبده من مواليد عام 1903، وأنيس روحانا من مواليد عام 1905.

جوقة الشحرور هي القلعة الزجلية الأولى للمنبر، غطت مساحة زمنية تمتد إلى 43 عاماً من تاريخ المنبر الزجلي. تسع سنوات قبل رحيل الشحرور، و34 عاماً قبل رحيل علي الحاج.

وتبقى بلدنا بالسلام مسيّجة
ويضحك عا هالعلوات غيم بنفسجي
ولما على بنيآتها يهب الهوا
يصير الهوا عبوابن يروح ويجي

كل فن يريد أن يبقى ويعيش يجب أن يتطور ويواكب الزمن، وإذا كان الفن تكراراً، فيجب أن يكون التكرار بأسلوب جديد وبطريقة جديدة، هنا نطرح السؤال التالي: ماذا طورت جوقة الشحرور في تاريخ المنبر الزجلي، وماذا حذفت وماذا زادت، وما هو الجديد الذي زرعته في حديقة المنبر، وكيف استطاعت أن تجعل للقول هذه الشعبية الكبيرة؟

بالطبع إن شاعرية الجوقة هي الأساس، ولكن علينا أن لا ننسى أن الشعر قوالب، وقوالب الشعر هي الوزن، لأنه لا يوجد شعر من دون وزن ولا محتوى من دون شكل.

لن نبحث في المحتوى الشعري للقول المنبري، بل سنبحث في الشكل وحسب.

جوقة الشحرور اكتشفت أن المنبر المحترف قضية عرض وطلب، وحتى ينجح المنبر عليه أن يعطي دائماً الجديد والمثير.

المنبر ليس سهرة في بيت، تستطيع أن تغني فيها ما يحلو لك. المنبر له توقيت، وبالطبع لم تستطع جوقة الشحرور بين ليلة وضحاها أن تلغي الشكل القديم للسهرة المنزلية ولسهرات المناسبات وتخلق الشكل الجديد

للتنظير المنبري، لكن جوقة الشحرور بدأت هي بالتغيير والتجديد، ورويداً رويداً أصبحت تثبت ما تراه صالحاً من خلال الممارسة المنبرية، ومن خلال تقبل الجمهور لهذا الشكل الجديد.

كيف كان الحوار قبل المنبر المحترف؟

كان القوالة يستعملون المعنّى فقط، وكان الشاعر يغني ردّات على المطلع قد تصل إلى 15 ردة، ومفروض بالقوال الخصم أن يركز الأجوبة عن كل ردة من المطلع، وكان الرديدة من حوله يذكرونه بالجواب إذا نسيه.

جوقة الشحرور اكتشفت أن هذه الطريقة مملة ومتعبة للسامع؛ فالجمهور المنبري يريد الجواب السريع، المختصر المفيد، من نوع ما قل ودل. من هنا اكتشفت جوقة الشحرور أن الردة بدلاً من المطلع أفضل، أي خطاب وجواب. عن المطلع نعطي مثلاً: أمين نخلة في مقدمة ديوان والده رشيد يقول: "أسميت الديوان **معنّى رشيد نخلة** مجاراة لما يطلقه سواد الناس على شعر والدي بالعامية". ويضيف: "اشتهرت طائفة من أزجال والدي بأسماء عامة وخاصة كمطلع الغيرة ومطلع القلب ومطلع القلبين".

إذاً، المطلع في تلك الأيام كان الوزن الشائع للارتجال وللكتابة، كيف كان يتغنى المطلع؟ لنأخذ مثلاً من **مطلع القلب** لرشيد نخلة:

ودّع وأدمى القلب يوم الودّعو
وقللي اصطفل قلبك رجع لموضعو
قربت من قلبي جفل مني ونفر
وقللي معك ما بروح خلليني معو

الردادة كانوا يأخذون هذا الشطر ويرددون: "**وقللي معك ما بروح خلليني معو**". أما الردة التي تأتي بعد المطلع فهي:

قربت من قلبي جفل مني ونفر
وقللي معك مش رح بروح بالمختصر
ورد ينده عللي رماه رمية حجر
لكن حزين مسكين مين بيسمعو؟

وهنا عادت القافية إلى الردة، ويرجع الرديدة ينشدون: "**وقللي معك ما بروح خلليني معو**".

هذا كان شكل المطلع الذي كانوا يتحاور به القوالة في ذلك الزمن.

جوقة شحرور الوادي تحررت من طريقة المطلع، وجعلت من الردة خطاباً وجواباً، وأدخلت على المنبر أيضاً القرّادي، وأدخلت وزن الموشح الذي استعملته للغزل؛ القرّادي تعتبرَ اكتشافاً كبيراً في إدخالها على المنبر الزجلي، وشكلاً سريعاً يستوعب خفة الظل، وفي ذاكرة الشعب أشياء كثيرة من القرّاديات التي كانت تحل المشاكل.

في إحدى المرات ذهب علي الحاج إلى حفلة بسيارة كان سائقها يضع خاروفاً في الصندوق، وهذه مخالفة، وأوقف السائق من قبل الدرك، لكن علي الحاج حتى ينقذ السائق من الضبط المحرر ضده، حدق في الدركي وقال له:

عاقرقور بالماكينة
مُوقّفنا تتجازينا
كيف لو كانت قرقورة
شو كنت بتعمل فينا؟

وديع الشرتوني كان في إحدى المرات يتصيد، فرآه دركي من بعيد، فناداه وسأله إن كان معه رخصة بالجفت؟ قال: لا، فأخذ منه الجفت، فما كان من وديع الشرتوني إلا أن قال للدركي:

لمن شفتك منك خفت

ناديتلّي وقاف وقفت

كارمتك ووقفتلك

كارمني وردللي الجفت

فابتسم الدركي وأعاد الجفت إليه.

نروي هذه اللمحة الصغيرة لنعرف أهمية إدخال القرّادي على المنبر، وخفة ظل هذه القرادي وطاقتها على استيعاب الأمور الخفيفة الظل، وكدليل سنسمعكم وصلة قرادي من جوقة الشحرور بأصوات: علي الحاج، أنيس روحانا إميل رزق الله، وطانيوس عبده:

خبّر بو حسين وقللو

كل شي بعدو بمحلو

خللي يبلط سطح البحر

المشكل ما بدنا نحلو

بعدو دمي عم ينحر

كبدي عامللي طوشة

كنا بالماضي نضطر

نوقف ونهدّي الغوشة

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

بدي اليوم بكبس الزر

ودّي الحاج على الروشة

ولما بيحشدلو المسمّر

ع درب شريكو دلّو

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

أوف.. شريكي عقلو كبير كتير

وكل عمرو خواض اليم

ما بيرمي حالو عن شير

الروشة وتحت الموجة دم

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

بينزل يتحمم بيصير

وخلفو في عاطفة الأم

اللي تحمّم ابنا وبتصير

تغنيلو غلّو غلّو

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

وصي شريكك بالعقلات

هي غلطة مش معقولة

ولا معقولة بالموجات

عنو ترد الحامولي

انشالله تكون من الإمات

العندن عاطفة الغولي

وفي غنجو بالحمامات

تحطلو ضربة تحلو

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

شريكي مهما عنو تقول

راضي الناس وعاجبني

لكن حكيك مش معقول

ما في غيرك تاعبني

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

إن كان فيي عاطفة الغـول   ليش حتـى أقتـل ابنـي

بشغلي شي واحـد مفتـول   وبقـدر إبقـى تفلّـو

الردادي: وخللي يبلط سطح البحر.. المشكل ما بدنا نحلو

دور علي الحاج في المعنّى

حيث المعنى سجّلو شريط الزمان

خللو الزمان يكون عنّا ترجمان

تا عند ما الجملة الجميلة تنعرب

يكون الزجل موضوع في صدر المكان

شحرور الوادي وعلي الحاج كانا وسيظلان من أكبر الشعراء الذين يتصدرون واجهة تاريخ الزجل المنبري. علي الحاج والشحرور ركيزتان من الركائز التي عمّرت لنا المنبر، ولولاهما لما كان للمنبر الزجلي كل هذا المجد وكل هذه الشعبية وكل هذا الانتشار. الشحرور وعلي أخذا خميرة قول من الجيل الذي سبقهم، ربيا على الخميرة وعجنا وخبزا، بالطبع لم يخبزا الخبز الإفرنجي ولا الكماج، بل خبزا لنا الزجل المرقوق والمهلول والمخبوز والمقمر على صاج المنبر الارتجالي.

الذي يشد جمهور الزجل إلى الحفلات، اسم الجوقة وشهرتها وقوة الحوار التي تمتلكها، والعطر الذي زرعته في قلب الجمهور، والخطاب الذي يدفع السامع إلى الاعتقاد أن الباب قد أغلق على الجواب، وفجأة يخرج الجواب غير المنتظر من فم الشاعر بسهولة.

في تلك الأيام كنت تستطيع أن تميز وتفرق بين ما يمتاز به كل شاعر ويختلف عن الشاعر الآخر، صحيح أن الموهبة موجودة لدى كل الشعراء، لكن كل شاعر على حدة كان يمتاز بنوعية من القول، وكانوا يقولون في تلك الأيام إن القصيد للشحرور؛ والمعنّى لعلي الحاج؛ والقرّادي ليوسف الكحالة. سنتوقف– إلى جانب رأيي المتواضع – عند رأي شاعرة كبيرة عاشت عمرها للزجل، وهي الشاعرة حنينة ضاهر. وهنا حوار بين الشاعر أسعد سعيد والشاعرة حنينة ضاهر.

– **أسعد سعيد:** منذ كنت صغيراً كان المرحوم الوالد يقول لي – وكان هذا هو الدارج على ألسنة كل الناس – إن القصيد للشحرور والمعنى لعلي الحاج والقرادي ليوسف الكحالة.

– **حنينة:** رحم الله علي الحاج، وقد قالها لي أكثر من مرة، "إن أسعد الفغالي لا يقدر عليّ عندما كنت أضايقه بالخطاب والجواب". الجواب كان لعلي، والرصاصة القاتلة، رصاصة الرحمة كانت لعلي، ويوسف كحالة في القرّادي لم يخلق له مثيل. يوسف الكحالة بمجرد أن تطرح عليه سؤالاً أو موضوعاً، يجيبك فوراً بقرّادي، بخفة دم وخفة روح وشكل محبب.

– **أسعد سعيد:** هل تستطيعين أن تتذكري ردتين له ولوليم صعب؟

– **حنينة:** كان وليم صعب أستاذ مدرسة في جل الديب، ويوسف الكحالة كان يعمل في النافعة، وفي إحد الأيام مر بجل الديب فرأى وليم يشرب القهوة، ومن دون أن ينده عليه قال له:

خبرني وقللي كيفك
كيف نحوك كيف تصريفك
إنشالله يكونو بجل الديب
صارو الكل خواريفك

من هنا نعود إلى الميدان المميز لعلي الحاج القماطي وهو ردة المعنّى، الردة المبكّلة والجواب المفحم، سنعرض بعض المقتطفات من منبريات علي الحاج في حفلة في ضهور عاليه في 15 أيلول 1933، يقول الشحرور لعلي:

أهون عليك لو كنت تبقى بمينتك
وتكون سيوفك بالوقيعة عينتك
صيري جبل طارق عياري مدافعو
من أربعة وسبعين دارس فينتك

يجيب علي الحاج:

ما بزماني كنت أشكي من الملل
من حد سيف التير يتولد علل
بوغاز طارق إنت منّك طارقو
بخللي السما تشتي على راسك كلل

الشحرور:

الشحرور لو لا الطارق بجنحو نقف
بدركبو ولقيد شعرة ما وقف
غلتك زعرور مش غلة حروب
لو نقفتها رح شقّها أربع شقف

علي الحاج:

غلتي بجوانحك لا تدقها
لو بلعتها بالآخرة بتبقها
من حرها تعرّت رياش جوانحك
وما تركتلك منقاد حتى يشقها

وهناك أكثر من ردة مشهورة من حفلة أقيمت في فرن الشباك. يقول علي الحاج:

يا فرن بالشباك شحرورك برك
مكتف الجنحين ما عاد احترك
ولو كان جمرك رح بيحرق جانحي
ببدل رياشي في وراق صنوبرك

علي:

لو كنت متل الأرز قادر زحلك
ولولا كنت رمدان بقدر كحلك
خايف عليك الفرن لو بلاطو برد
في منجل الفران بدو يشحلك

الشحرور:

في منجلو الفران لو صوبي مرق
ومن طوشتو أخضر ويابس ما فرق
حبات قلبي الصافية للمبخرة
ومتل عود الند لو جنحي احترق

علي:

كل ما مرة كلامك بسمعو
بيصير جفني عليك طايف مدمعو
الفران جايي وحاجتو حملة حطب
الند والزعرور ما بتفرق معو

من حفلة في بحمدون في قهوة الفردوس عام 1933، يقول الشحرور:

يا جدنا آدم إنهاض من التراب
ومن مطرح ال دفنوك قوم ولا تهاب
شق الطريق لغير مطرح ما تروح
وشوف في فردوسنا ملقى الحباب

علي:

خليك يا شحرور في مركز علي
إياك تسكر لو شربت السبعلي
تروك آدم في ضريحو مستريح
وصفي حسابك مع أنيس ومع علي

الشحرور:

الحاج عم يشهد علي شاهدو
أما رصيدي بالحساب شواهدو
يا حاج آدم في ضريحو ناطرك
تاتروح في رفقة أنيس تشاهدو

علي الحاج:

حاجي تعلّي بالمعنى ناظرك
بالآخرة بتعود مكسور خاطرك
شاهدت آدم جدنا ونلت الشرف
وابليس ع شبابيك بيتو ناطرك

ومن حفل في بعقلين، يقول الشحرور لعلي:

شبهت حالك بالأمير الخزعلي
يا نفس من خلّي علي لا تزعلي

بنت المعنى لبسوني تاجها

لكنها خلخالها بمركز علي

علي الحاج:

بنت المعنى مسكتها بيتاجها

وملكوني رزقها وإنتاجها

ومن كان عن خلخالها باعو قصير

بيكون أقصر لو طمع في تاجها

الشحرور:

أسعد خليل سمعان من وادي الأسود

وكل عمرو حصرمة بعين الحسود

وقعتك يا حاج خسّيرة معي

وبيي خليل سمعان طباع القرود

علي الحاج:

شحرور لحمي جوعَك ما شبّعك

والحاج من غمزة عيونو بيسبعك

بتقول بيك كان طبّاع القرود

قضى حياتو وما قدرش يطبعك

شاعرنا الكبير اميـل رزق الله انضم إلى جوقة الشحرور في سنة 1937، أي بعد رحيل الشاعر الكبير الشحرور. يقول:

لبنان يا أرض البطولة والشمم

مفكر عدوك يحلم يوطّي العلم

بدها السما تشتي قنابل محرقة

والأرض تتفجر براكين وحمم

جوقة الشحرور هي الجوقة التي تمثل الأصالة اللبنانية، جوقة لم يستطع إلا الموت أن يفرقها، بقيت متلاحمة، وبقيت محبة كل فرد للفرد الآخر موجودة حتى آخر نفس من الحياة، ولإميل رزق الله[*] هذه الكلمة عن علي الحاج يقول: "علي كان جبل.. جبل المعنّى خاصة، ولولا علي ما كان شحرور الوادي تمكن من متابعة طريقه. علي هو من دعم شحرور الوادي وسانده. وبموهبة علي العظيمة وطلاقته وفصاحته وسرعة بديهته وحضوره المسرحي وإطلالته المهيبة، مكّن الجوقة من أن تشق طريق النجاح، كما مكنها أيضاً من الاستمرار والمحافظة على مستواها بعد وفاة الشحرور. ولا أظن أنني أظلم الشحرور إذا قلت، لولا علي لما كان الشحرور، ولا كنا قد سمعنا بجوقته".

واجب علينا الشاعرية نصونها

ونبني على صخر العقيدة حصونها

تنظل في ركب الحضارة سايرين

ونقول مقياس الشعوب فنونها

على قفلة هذه الردة التي يقول فيها علي الحاج: "**ونقول مقياس الشعوب فنونها**"، لنا وقفة مع قصيدة.

لم تكن تمر حفلة إلا والناس تنتظر علي، وقد اشتهرت عنه الردة التالية التي قالها في عرس في جونية، وكان اسم العروس "ميليا"، وقد استعمل التورية:

في أرض جونية ميل يا غصن الدلال

واليوم شرب الخمر صار عندي حلال

---

[*] نشر كلام إميل رزق الله في مجلة البيدر، العدد 562، ص 5.

بنت المعلى لبسوني تاجها

لكنها خلخالها بمركز علي

علي الحاج:

بنت المعنى مسكتها بيتاجها

وملكوني رزقها وإنتاجها

ومن كان عن خلخالها باعو قصير

بيكون أقصر لو طمع في تاجها

الشحرور:

أسعد خليل سمعان من وادي الأسود

وكل عمرو حصرمة بعين الحسود

وقعتك يا حاج خسّيرة معي

وبيي خليل سمعان طباع القرود

علي الحاج:

شحرور لحمي جوعك ما شبّعك

والحاج من غمزة عيونو بيسبعك

بتقول بيك كان طبّاع القرود

قضى حياتو وما قدرش يطبعك

شاعرنا الكبير اميـل رزق الله انضم إلى جوقة الشحرور في سنة 1937، أي بعد رحيل الشاعر الكبير الشحرور. يقول:

لبنان يا أرض البطولة والشمم

مفكر عدوك يحلم يوطّي العلم

بدها السما تشتي قنابل محرقة

والأرض تتفجر براكين وحمم

جوقة الشحرور هي الجوقة التي تمثل الأصالة اللبنانية، جوقة لم يستطع إلا الموت أن يفرقها، بقيت متلاحمة، وبقيت محبة كل فرد للفرد الآخر موجودة حتى آخر نفس من الحياة، ولإميل رزق الله[*] هذه الكلمة عن علي الحاج يقول: "علي كان جبل.. جبل المعنّى خاصة، ولولا علي ما كان شحرور الوادي تمكن من متابعة طريقه. علي هو من دعم شحرور الوادي وسانده. وبموهبة علي العظيمة وطلاقته وفصاحته وسرعة بديهته وحضوره المسرحي وإطلالته المهيبة، مكّن الجوقة من أن تشق طريق النجاح، كما مكنها أيضاً من الاستمرار والمحافظة على مستواها بعد وفاة الشحرور. ولا أظن أنني أظلم الشحرور إذا قلت، لولا علي لما كان الشحرور، ولا كنا قد سمعنا بجوقته".

واجب علينا الشاعرية نصونها

ونبني على صخر العقيدة حصونها

تنظل في ركب الحضارة سايرين

ونقول مقياس الشعوب فنونها

على قفلة هذه الردة التي يقول فيها علي الحاج: "**ونقول مقياس الشعوب فنونها**"، لنا وقفة مع قصيدة.

لم تكن تمر حفلة إلا والناس تنتظر علي، وقد اشتهرت عنه الردة التالية التي قالها في عرس في جونية، وكان اسم العروس "ميليا"، وقد استعمل التورية:

في أرض جونية ميل يا غصن الدلال

واليوم شرب الخمر صار عندي حلال

---

[*] نشر كلام إميل رزق الله في مجلة البيدر، العدد 562، ص 5.

قوم يا علي نادي على أمة علي
يفطرو ع ذمتي شفت الهلال

وهنا تتضح التورية بين "ميل يا" و"ميليا".

عندما كبر علي في السن، بقي يتغزل، حتى إذا قالوا له: كبرت يا علي، قال لهم:

قالو مشيبك سكر عليك الطريق
وصار في كرم الهوى غصنك عتيق
قلتلهن كل ما يبس عود الحطب
بتزيد عندو القابلية للحريق

في مرة كانوا على مفرق طريق في سيارة، الخوري، ورئيس الدير، والحاج، وكالعادة أوقف الدرك السيارة المخالفة، وطلب من السائق إنزال الركاب، فما كان من علي الحاج إلا أن قال له:

تلاتة ع المفرق كنا
وغير سيارة ما عنا
خوري وحاج وريس دير
ومين بدك ينزل منا

قال علي الحاج في ردته: "**تنظل في ركب الحضارة سايرين ونقول مقياس الشعوب فنونها**".

المقطع التالي يدل على نظرة وتعلق بالتراث، ويقول:

البعض بيقولو الخطر ولى وراح
وبينعتو الإنسان في بعد النظر

أمن حياتو بالملاجي واستراح
من كل غارة بحصن باطون وحجر
وكل عدوى في لها إبرة لقاح
وبالجسد كسر العظام بينجبر
هزيت راسي وصحت من عمق الجراح
وقلت وين الاختيار من الخبر
مش خطر بالقنبلة قبل الرواح
ما زال فعل الموت واقع منتظر
ولا خطر هب العواصف والرياح
ولا يباس الزرع أو حبس المطر
ولا الخطر ع الشعب من حمل السلاح
بس الأغاني المايعة هيدي الخطر

والشعب لو زغزغ بنفسو نيتو
قولو دنت بالمعنوية منيتو
وكل من ضيّع تقاليد البلاد
بيكون متل اللي نكر جنسيتو
بيعلق بغنيي إباحية وفساد
وبتصير عندو جزء من نفسيتو
وترديدها بيترك أثر عند الولاد
بتروح في سن البلوغ ضحيتو
ومن هيك حتى صار عندي اعتقاد
كل شعب بتجهلو بين الشعوب
تاتعرفو فتش على غنيتو

وعلي الحاج الموجّه الوطني والمصلح، ما كان لينسى ويوفر المسؤولين من كلماته. في مقطع من قصيدة طويلة بمناسبة عيد الاستقلال يقول:

عن إيمان هالقول اللي قلتو

مش سائل رضينو أو زعلتو

على تقصيركم لبنان صابر

ومهما التضحية رخصت بخلتو

اكتفيتو من الجدود بمجد عابر

وبخمرة نصرها الماضي ثملتو

الفعل من دون حكي عاشو أكابر

وأي زير من هالبير شلتو

وإذا بالحكي شغّلتو المنابر

في تاريخ شو بدنا نقلّو

إذا بيقول انتو شو عملتو

* * * *

شوفو الجد كيف كانت خصالو

كلامو كان أغلى من المصاري

يبقى فاتح الصفحة قبالو

بينو وبين غيرو حساب جاري

وحتى كيف ما كانت حوالو

راعي حصان أو شغلو مكاري

يتجنب إذا ميّل خيالو

ع رزق الغير وجنابو يداري

وشعب اليوم ربو صار مالو

وميكروب الطمع بالكل ساري

يمينو بعصرنا بتاكل شمالو

بيّاع بوقت واحد وشاري

وكل إنسان صار يشوف حالو

ابن الست في هالبيت وحدو

والباقي من ولاد الجواري

المخمّس المردود والموشّح والقرّادي

من ردة المعنى تعمّر منبر القول، لأن الرد مشاركة بين الجمهور والقوال، ولذلك لم يكن القوال يذهب إلى مناسبة إلا ومعه حوزته أي الرديدة، الذين يحمسونه ويذكّرونه إذا سها عن جواب في المطلع.

من ناحية أخرى، القصيد حرّ ولا يحتاج إلى رد، بينما ردة المعنى التي تحمل الجواب هي التي تحرك الرديدة وتحمّس الجمهور.

كانت هاك الحلوة بعمر الولدني
بتبقى بعقد الياسمين مزيّني
تقلّو احكيلي ع المحبة والهنا
تا ألحقك ع آخر حدود الدني

سبق أن قلنا إن المنبر الزجلي، يستعمل مع المعنّى وزنين: الطويل والقصير، ولا ننسى أن وزن المعنى يتغنى أيضاً كقصيد، مثلاً يقول الشاعر عبدالله غانم:

دقت على صدري وقالتلي افتحو
تا شوف قلبي إن كان بعدو مطرحو
وإن صح ظني وشفتلو عندك رفاق
بسترجعو وما بعود خليك تلمحو

* * * *

وإن صح ظني وشفتلو عندك رفاق
بسترجعو وبنسى ليالينا العتاق
قلبي إن هجرتك يدبحو مرة الفراق
وإن ضل عندك كل يوم بتدبحو

أشرنا إلى هذه الأبيات لكي نعرّفكم على ما هو مجهول عند عشاق الزجل، وهو "المخمّس مردود". المخمس مردود، يعتقد البعض أنه المجزّم ويخلطون ما بينه (أي المجزّم) وبين المخمس مردود، بعض محبي الزجل يعتقد أن المخمس مردود هو: "**بكد بجد بصد برد بشد بهد المسكوني**"، هذا ليس مخمساً مردوداً، بل مجزّم.

كيف كان المخمس مردود في التراث؟ سنسمع مقطع من قصيدة طويلة للخوري لويس والد الشحرور:

عالمعنى كتير ع عصري مرق
وبكل حفلة كنت بيّض مرسحي*
وبين الدفوف وبين كاسات العرق
أصل المعنّى ارتجالي ومرسحي

لنأخذ دخلة المخمس مردود:

بين الدفوف وبين كاسات العرق
أصل المعنّى ارتجالي مرسحي
بين الدفوف وبين كاسات العرق
وبكل حفلة كل ما دف انطرق

* كانوا يستعملون سابقاً كلمة مرسح بدلاً من مسرح.

خطاب وجواب مش ميدنة فوق الورق

عزت من بحر وقطف من زر ورد

ومن سرعة الخاطر يجي متل الوحي

عزت من بحر وقطف من زر ورد

ومتل شلال السكب من راس جرد

واللفظ يطلع من جمال الصوت سرد

والمقاطع يفهموها السامعين

وما تعود من ذهن واحد تنمحي

هذا شكل المخمس مردود مع القصيد. "**والمقاطع يفهموها السامعين**" فتحة إلى بيت جديد. "**وما تعود من ذهن واحد تنمحي**"، كانوا يطلقون عليها رجوع إلى القافية "**أصل المعنى ارتجالي مرسحي**".

راحوا اللي حبو راحو

والعاشق لمّ جراحو

حاكيني وخلليك بعيد

وحاجي تغزلي مواعيد

ويا خوفي لا الشوق يزيد

وهالقلب تجن رياحو

المخمس المردود كان يأتي بشكل القصيد. الذي سمعنا منه مقطعاً بصوت الشحرور من قصيدته في مصر:

قلب الجبل يا مصر فيكي هام

وكل قلب بأهل بر الشام

مع كل موجة وكل هبة ريح

يهدو حنين الأرز للأهرام

مع كل موجة وكل هبة ريح

قلوبنا بأسرارها بتبيح

وطيورنا بنغماتها بتصيح

نحنا العرب والشرق مرتعنا

مهبط الآيات والإلهام

من هنا يبدأ القصيد على قافيتين، ويستمر حتى يصل إلى:

عند الشدايد مصر مرجعنا

يا مصر يا أم العلا والمجد

فيكي السيوف معانقة الأقلام

يا مصر يا أم العلا والمجد

من الأردن لأرض الحجاز لنجد

قلوب العرب تخفق حنين ووجد

من طبعها للقاهرة بتميل

بفيّة علمها بتحتمي الأعلام

من طبعها للقاهرة بتميل

مهد الحضارة الجيل بعد الجيل

وأول مدخل إلى قصيد جديد يقول:

الأحلام ما فسّر معانيها

لو ما استقى يوسف مياه النيل

ولو ما يكون عيسى احتمى فيها

ما كان في عيسى ولا إنجيل

أيضاً كان يأتي المخمس مردود مع رديف يسمى "المطوّح"، لحنه قريب من لحن الهجاثيات، من شعر رشيد نخلة نسمع مخمس مردود مع الردف:

يا ليل مالي بالهوا ومالك

حالي تغير وانبدل حالك

بالأمس كنت الروح والريحان

واليوم عيني بتكره خيالك

بالأمس كنت الروح والريحان

اسهر ع بدرك والعزول غفلان

واليوم حيثك بالغيوم غرقان

ويبدأ الردف هنا:

يا ليل غيري شوف يسهر معك للفجر

يقلك على المكشوف بيجوز عليّ الحجر

لا بينفع المشغوف لا النهي ولا الزجر

من يصنع المعروف يغنم عظيم الأجر

ويجيب حبيبي يشوف كيف صرت بعد الهجر

باكي حزين ملهوف من الفجر حتى النجر

ما بين غرامي وزهد محبوبي

يا ليل لا تطلعش أحلالك

"**وما بين غرامي وزهد محبوبي**" مدخل إلى بيت جديد من قصيد المخمّس مردود ومع الردف.

يوم ويومين وجمعة وشهر وشهرين

تعبت بعيني الدمعة وين غايب وين

شهر وشهرين وبعدك بعدك بتقول

محافظ ع وعدك بعدك والوعد يطول

وقلبي الناطر ع بُعدك بالو مشغول

مشغول وليلو بعدك صاير ليلين

ويوم ويومين وجمعة وشهر وشهرين

تعبت بعيني الدمعة وين غايب وين

عالعالي طارو وعلو جوز حساسين

حساسين وراحو غلو بعبّ الشربين

ويسأل وينن ونقلو راحو الحلوين

الحلوين الكانو يملّو من راس العين

الموشح والقرّادي كانا أهم عنصرين حركا المنبر الزجلي بالإيقاع السريع، كما سمعنا في "**يوم ويومين وجمعة**".

كان الموشح قبل ذلك يستعمله القوالة للمرجلة. ونذكر الردة الفلكلورية التي حققها الأخوان رحباني:

قالولي في قوالة صرت مقلّق

وينو شيخ القوالة يحضر هلّق

الموشح مع حركة الزجل وحركة ترتيب الحفلة المنبرية أصبح كنوع من الغزل يأتي في نهاية الحفل، مثل ردة الشحرور الشهيرة:

يا إم العين الدبلانة وجفن النعسان

جفون عيونك خلقانة لقتل الإنسان

* * * *

راحو اللي حبو راحو

والعاشق لم جناحو

دخلك وين دموع العين

بها العينين بيرتاحو

حاكيني وخليك بعيد

وحاجي تغزللي مواعيد

ويا خوفي للشوق يزيد

وها القلب تجن رياحو

يا حلوي لا تخافي كتير

تشردنا بهيك مشاوير

كبرتي وحبيتي بكير

وخدّك لوّح تفاحو

* * * *

القرادي والموشح لا يزالان على المسرح، لكن المؤسف بالنسبة إلى القرادي، أن الجوقات تضيّق مساحته على المنبر، ولا يتجاوز أكثر من أربع أو خمس ردات للحفلة كلها.

والأهم من ذلك أن القرادي تتغيب عن المباريات الكبرى. يعني لا مباراة دير القلعة بها قرادي ولا مباراة المدينة، يجب على المنبر الزجلي أن يجدد مجد ردة القرادي ويعطيها حقها.

قللي في حلوي بها الحي

كتبتلا اسما ع المي

وسما الجيرة وسما الحي

ولولا شوي سماني

جوقة الشحرور أعطت القرادي حقها الذي تستحقه. وبعد رحيل الشحرور كانت تختتم الحفلة ببعض القصائد التي تحتوي على حوار قرادي طويل قد يصل إلى حد تسع ردات لكل قول.

يجب أن نرد إلى ردة القرادي حقها الضائع على المنبر الزجلي:

رسالتنا فيها مواضيع

نصر الحق وطلابو

رسالتنا لما بيضيع

الحق نردو لصحابو

ربينا مرفوعين الراس

وللعدل خلقنا حراس

ولما نصون حقوق الناس

ما في باطل بنهابو

لمن درب الحق نشق

ما منرجع تا الحق يحق

يا تعتيرو البدو يدق
بسبع الكاسر في غابو

خلقنا منتقهقر بالضيم
لكن لما بيوقع حيف
مش معقولة نخلي السيف
يهدا تكّي بقرابو

طوّل بالك يا مظلوم
ما في ولا شدة بتدوم
نزال صدّو تا بدمّو يعوم
مهما يكشر عنيابو

رسالتنا فيها مواضيع
نصر الحق وطلابو
رسالتنا لما بيضيع
الحق نردو لصحابو

قلنا تقدم فينا الكون
صار الضعف يلاقي عون
تاري كل دقيقة بلون
وبعدو بيوقع في أغلاط
بالتاريخ بيتحابو

نحنا ربينا بلبنان
منارة تهدي الإنسان
الكرامة وصدق الوجدان
أول آية بكتابو

ورسالتنا لما يضيع
الحق نردّو لصحابو

جوقة الشحرور والمنبر الزجلي

قلت يوم حاوطت الحرب وطني لبنان، وهجّرت أهله:

لبنان يا شمس ال ما خلقت تاتغيب
شاب الزمان وانت مش ممكن تشيب
يا لحن كان يعزف بصوت العندليب
يا جرح عم ينزف وداير ع طبيب
إلنا أمل من بعد هالصلب الرهيب
تزيح الحجر وتقوم وجروحك تطيب
إن قالو زجلنا زنبقة بتفوح طيب
هالطيب من قلبك الأصفى من الحليب
عمري ندرتو للهلال وللصليب
وقطعة أنا منك يا لبنان الحبيب
كل بيت بيتي وكل ضيعة ضيعتي
والكل أهلي وما حدا عني غريب

إدارة حركة المنبر الزجلي تحركت عفوياً، فكل مسرح يحتاج إلى ممثل ومخرج ومتلقٍ... الخ، بينما القوال هو المؤلف والملحن والمخرج والممثل على حد سواء. من هنا صعوبة الحضور المسرحي في القوال. من

تجارب القوالة وتجاوب الجمهور، حصلت بعض التغيرات. وأتذكر كلمة لشاعرنا الكبير علي الحاج، عندما كنا نقول له إن الجوقة الفلانية غنت بشكل جيد، فكان يجيب، ليس المهم ماذا غنت، المهم هو كيف تركت الناس؟ لأن المهم في الحوار المنبري إرضاء الذوق العام، لأن إعجاب الناس يتصدر هموم القوال.

خبطة قدمكن ع الأرض هدارة
انتو الأحبة وإلكن الصدارة
خبطة قدمكن ع الأرض مسموعة
خطوة العز وجبهة المرفوعة
ويا حلوة اللي عالحلا عم توعا
عنقك العقد وإيدك الإسوارة

سهرات المناسبات القديمة مع الزجل المنبري في المنازل وفي الساحات كانت تبدأ بالترحيب بالموجودين وبالمناسبة وبصاحب البيت، ومن ثم تنتقل إلى الحوار، الذي كان يسمى "قول جفا" إذا كانت الحرب قائمة، أما إذا كان الزمن زمن سلم فيسمى "قول مطايبة"، لكن الجمهور في الماضي وحتى الآن يركز اهتمامه على "قول الجفا" الذي يعني المبارزة الكلامية التي تأسس عليها المنبر الزجلي.

تاريخ الزجل حتى اليوم لا ينسى ردة "**شديد المزرعة**" التي قالها في عرس في بعقلين في جبل لبنان، وكان القوالة ينقسمون إلى فئتين: اليزبكية والجنبلاطية، وكان شديد جنبلاطياً، يقول هذه الردة للقوالة بحضور نسيب جنبلاط.

لا بد ما كاس الصفا يصفالها
ويخوض مهرك يا نسيب مجالها

دار البناها بشير عمود السما

عيب إنّو تتكرو أفضالها

المنبر الزجلي الذي نبت من المناسبات والسهرات القديمة بقي على الخط نفسه: مدح الجمهور ويليه الحوار. لنأخذ مثلاً من حفلة لجوقة الشحرور في مقهى عجرم في بيروت عام 1935. أول ردة للشحرور في هذه الحفلة، كانت عنقوداً من عنب الشعر الجميل، كل حبة بطعم، والردة تجمع بين الغزل والمسرح واسم عجرم صاحب المقهى والبحر والجمهور. يقول:

القد متل الرمح لو مال وعطف

من ميلتو من مراوحي قلبي خطف

عجرم على شواطي بحور المالحة

صارت زرار الورد عندو تنقطف

ويكمل الشحرور القرادي:

يا شاطي الناظر مفتون

بمشهد من أعجب ما يكون

فيك المالح متل الشهد

وعجرم أطرى من الهليون

فيك المالح متل الشهد

وعجرم ناعم كالديباج

في ضمك بذلت الجهد

بيفنى عمري وما بقول حاج

فيك الغزالة والفهد

مشيو ع أحسن منهاج

كحلهن ربي بالمهد

وفتحو ع الفردوس عيون

أنيس روحانا:

قهوة عجرم جايبها

رب الكون بأحسن كسم

عيون الناس بجانبها

بتنقلّ عنها أظرف رسم

تمت كل مطالبها

وعجرم هالقهوة بالاسم

ومن طراوة صاحبها

بيتحلى مرَ الطيّون

طانيوس عبدو:

عجرم في عندو آيات

ناحر قلب الشاطي نحر

والغسلة بالحمامات

بتسحر روح العالم سحر

ويا عيني فقش الموجات

بين النور وبين البحر

لو طلّعنا بالميات

بتفرّح قلب المحزونِ

وبعد أربع ردات من هذه الردة، يختم الشحرور القرادي ويقول:

عليي كرت أسقامي

وأيش بيطلع بايدي

اشتدوا وجاعي وآلامي

وكاتم علاّت شديدة

وأنا بحال الإضامي

رحت لمصر السعيدة

وراجع متل الحمامة

بتمي غصن الزيتونِ

الردة تدل هنا على أن الجوقة كانت عائدة من مصر لتوها. ويعود من بعدها الشحرور ليبدأ ردة معنًى ليفتح الطريق أمام "علي" كي يبدأ. يقول الشحرور:

شاهدت لما جيت بسرعة وعجل

أغصان عجرم جنبها الفل انخجل

ولما لقيت العجرمي متل الحرير

غطيت فوق غصونها غني زجل

نلاحظ هنا أن علي الحاج لم يطل ولم يقل شيئاً، وكأنه قد اختبأ ومعه مفاجأة الحفل، وكردة مدح يقول علي الحاج:

عجرم على شاط البحور ما أودعو

كيف ما مال القلوب مالت معو

ولو كان عجرم متل هالعجرم حمل

في بصابيص العيون بنزرعو

ثم يتبعها بردة ثانية:

كل شجرة مكللة بأزهارها

لو غط فيها الطير هرو قمارها

ومهما يكون الغصن أبهى من الحرير

لا بد من شوكة تصون ثمارها

الجولة السابقة من الردة الأولى حتى الأخيرة، كانت بشكل مدح، واليوم المنبر الزجلي أصبح يختصرها بافتتاحية وحسب.

الردة التي بدأ بها الشحرور "**لما رأيت العجرمي مثل الحرير،غطيت فوق غصونها غني زجل**" كان جواب علي عليها "**مهما يكون الغصن أبهى من الحرير، لا بد من شوكة تصون ثمارها**".

يجيب الشحرور:

مش كل طير بتقشعو باز الشجر

ولا كل شوكة شكلها بيخلق ضرر

كم بالحري لو كان شحرور الذكي

وين ما غط وحكي بيحكي درر

علي الحاج:

فوق الغصون سمعت منك تكتكي

إن قلت الحقيقة بخاف انك تشتكي

الكل بيحبو الجواهر بالدرر

ع شرط ما تكون الجواهر بالحكي

الشحرور:

ع مسرحي ليك العيون مشوهرة
تا يسمعو مني قوافي مجوهرة
كل كلمة بقولها بتذهب مثّل
وأحرف كلامي كل حرف بجوهرة

هنا يتدخل أنيس، لأن تركيبة الجوقة في الماضي كانت على الشكل التالي: علي وأنيس ضد الشحرور وطانيوس، يقول أنيس للشحرور:

لا تظن حالك ع الطيور إنك ملك
ما في سلاح بيقهرك تاتنملك
بارودة اللي دكّها ساعد أنيس
بتجندلك لو كنت في قرص الفلك

الشحرور يجيب أنيس:

بارودتك بالصيد عني بتنحرف
وما بيطلع ضربها غير بالصدف
ومن بعد ما تعلمت عن يدي القواص
كيف طاوعك قلبك تا تعملني هدف؟

يقول علي للشحرور:

خللي الجميع يجاوبوك ويسألوك
وبختم معك أنك غني بحسن السلوك
لو بالمعنّى كل كلمة جوهرة
كل أرباب الزجل كانوا ملوك

هنا يتدخل طانيوس مدافعاً عن الشحرور ومهاجماً علي وأنيس:

الشحرور قائد بالذكاوة متل فوش
ومتل سبع الغاب في ملقى الجيوش
لا تخاف لو قوّص علي وقوّص أنيس
لو قوّصوا بعجرم تجي بمجدل معوش

كما سبق وذكرنا إن جوقة الشحرور في أيام الشحرور كانت مؤلفة من جبهتين: جبهة الشحرور وطانيوس من جهة، وعلي الحاج وأنيس من جبهة ثانية. ولكن بعد رحيل الشحرور، أصبحت تركيبة الجوقة مختلفة، فالتحالف كان بين علي وطانيوس وأنيس وإميل رزق الله.

من الجوقة التي من خلالها تعمّر المنبر الزجلي اللبناني، جوقة شحرور الوادي، نتوقف عند أبيات لشاعريها علي الحاج، وأنيس روحانا.

كل من عاش على مرامو
لما بتخلص أيامو
بيحضر في محكمة الحق
وفعلو بيحضر قدامو

الله مودي ناس كتير
من تكوين المسكوني
حتى تصير الناس تسير
بأقوم خطة موزونة
أما اللي بشوفو شرّير
ما بنطر للدينونة

يصفيلو حسابو بكير
ويربط مرسة إعدامو

بالجنة الرب الرحمن
جفنو ع العالم ساهر
وعارف مين عندو إيمان
بالباطن مش بالظاهر
اللي بدو يجازي الإنسان
بدو يكون متلو طاهر
مش متلك راكب ع حصان
الطيش وراخيلو لجامو

من صغر السن تعلم
لسانك عشهادات الزور
حتى نرفز وتألم
من قول الزور الجمهور
لكن ع شعري سلم
لولا وجودي بالمعمور
لا لسان الحق تكلم
ولا بتتحضّر أقلامو

تركتو بالمستنقع بط
عن همو تا يتسلى
حط برمشة عينو ونط

وكيف الله عنو تخلى
ع العمياني بيقرا الخط
حتى ع سهيل تعلّى
ولما بينعس رمل الشط
فراشو والغيم حرامو

في تشييد مزارك شط
وما يلومك مطفي نورك
ولو بتشوف بتقرا الخط
عيني وبيخف غرورك
انت اللي نزلت على الشط
وغرقت ببحر شرورك
ونحنا متل فروخ البط
الغطسو بالبحر وعامو

إسأل عني المنبر مين
بيقلك في سلم وحرب
إن غنيت الشعر بتلحين
المتنبي بيفتحلي الدرب
ولو تحمل نسمة صنين
أفكاري لبلاد الغرب
كنت بخلي لامارتين
ترقص بالقبر عظامو

حفلة جسر الباشا:
علي وأنيس وإميل وطانيوس

عرفنا تاريخياً كيف ابتدأ المنبر الزجلي من ساحة الضيعة وبيوت الوجهاء، ومناسبات الأعياد والأفراح. بالطبع لقد ابتدأ هذا المنبر ارتجالياً عفوياً من دون تنظيم ومن دون توقيت، ومع حركة المنبر التي بقيت عفوية ومن دون تخطيط، أصبح القوالة يعرفون ما هي القولات التي يتجاوب الجمهور معها، كما أصبحوا يعرفون من التصفيق والاستحسان الأمور التي يحبها الجمهور ويريدها.

كان منبر القوال القديم يبدأ بمطلع المعنى فحسب، لكن مع حركة المنبر دخل القصيد الطويل والقصيد القصير، انشغل بهما عن طريق المخمّس مردود مع القصيد، والمخمس مردود مع ردف، وبهذا دخلت الصيغة على المعنّى، وأصبح هناك ما يسمّى "الكراج" ونوع آخر يسمى بـــ "الرصد"، وآخر فيه الجناس. جوقة الشحرور ومن خلال الممارسة اخترعت تركيبة خاصة بها للحفلات، وكل الجوقات التي أتت بعدها اعتمدت هذه التركيبة من دون تعديل.

هذا من ناحية الشكل، فالمنبر الزجلي يتحرك من خلال ثلاثة إيقاعات: قصيد بطيء من دون رد، وردة معنّى أسرع، وردة قرادة أو موشح أسرع أكثر. سنسمع نماذج منها:

حفلات الزجل صارت عديدة
مشبع جوها أنس ولطافة
وكنا كل ما نغني قصيدة
نوعّي كل صاحب جفن غافي
لكن هالزرع بعد الحصيدة
تتجمع غلتو بمقدار وافي
بسمو الفكر والنفحة الجديدة
وجمال اللحن نخلق جو صافي
بحفلة مطربة لكن مفيدة
ما بيجوز بفن المعنى
نضحي بفكر تانرضي القوافي

هذا قصيد لشاعرنا الكبير علي الحاج. هذا القصيد من وزن بطيء، وإقامة حفل على هذا الوزن البطيء يسبب الملل. من هنا تأتي ردة المعنّى التي تحتوي على السرعة أكثر من القصيد:

فن الزجل شعر الحياة بلهجتو
ياما هدى فلول البشر في رهجتو
ما خلّد الشاعر بصفحات الزمان
حتى القوافي تنسلخ من مهجتو

ردة المعنّى هذه تتضمن سرعة أكثر من القصيد. ولكن إذا كان الحفل كله مقام على المعنّى فقط، فقد يؤدي ذلك إلى الملل، فيأتينا التشكيل الثالث القرادي والموشح وهما أكثر سرعة وأكثر حركة لما فيهما من نبض، لأن الردة ترد باللازمة الأولى، وترد في منتصف الزجلية، وترد في نهايتها.

خبّر بو حسين وقللو

كل شي بعدو بمحلو

خللي يبلّط سطح البحر

المشكل ما بدنا نحلو

بعدو دمي عم ينحرّ

وكبدي عاملي طوشة

كنا بالماضي نضطر

نوقف ونهدي الغوشة

من تركيبة هذه الأوزان وهذه الإيقاعات، كانت تركيبة حفلات جوقة الشحرور على الشكل التالي: افتتاح قصيد ثم ردة معنّى وأخيراً قرادة.

الموضوع **الأول** بين إميل وطانيوس، الموضوع **الثاني** بين علي وأنيس، وكان يتخلل الموضوعين قصيد وردة معنّى، بين علي وأنيس قصيد وردة معنى في آخر الموضوع ليقفل بقرادي. بعد القرادي يطل إميل ليفصل بين علي وأنيس ويطلب منهما أن يغنيا الغزل، وبعد جولة الغزل تأتي جولة موشح بها غزل، وبعدها يكون ختام الحفل.

دار الدوري عالداير يا ست الدار

وحامل هالقصة وداير داير مندار

طاير من فوق سهيلة رف حساسين

برفرف من ميلي لميلي بنقود ياسمين

طل الليل ويا ويلي شاف الحلوين

صار الليل بها الليلة يعشق ويغار

سنعطيكم صورة عن حفلة أقامتها جوقة الشحرور في جسر الباشا عام 1962، هذه الحفلة تعطينا شكل التركيبة التي ذكرتها، وتعطينا شكل المحتوى الحواري بالنسبة إلى الشعراء، من افتتاحية علي الحاج لهذه الحفلة نأخذ هذا المقطع:

لا الله بالشكر مديت يدّي

ودموعي خطّطت مجرى ع خدي

لما محبة الطبقة الوجيهة

بها الجلسة جلت قلبي المصدّي

وبحر الأنس ونفوس النزيهة

بأهل الجسر بتربطنا المودة

بعد ما علقت بمحبة بنيها

إذا تخيرت شو بدي وما بدي

ما بدي بناية أشتريها

بدي للسكن خيمة ع قدي

من المفروش لو ما كان فيها

إلا سقف من كشح الصنوبر

فراشي أرض والصخرة مخدي

* * * *

رستم* حكم بالعدل رجحت عينتو

واليوم غير عادتو يا حوينتو

لو كان عادل زت عن قبرو الحجر

لما الضيوف تجمعو بجنينتو

بعد الافتتاح وردة المعنى، وكالعادة متل تركيبة الحفل يبدأ علي الحاج القرادي:

الكوثر لو يعرف شو صار

بجسر الباشا والديرة

بتصير تغلي متل النار

دمعة عينو من الغيرة

والردة لعلي الحاج:

بتصير بتغلي متل النار

من الغيرة دمعة عينو

ويعمل جسر الباشا مزار

أول ما بيعرف وينو

ويمكن من أول مشوار

تا يحلي مية عينو

عبا سبع تمان جرار

من ميّة نبع الزيرة

---

* رستم باشا هو المتصرف الثالث التركي التي تعمرت الجنينة في أيامه.

أنيس روحانا:

بها الشعر الزجلي الرنان

بظل الراية المنصورة

برمنا بكل البلدان

وشقنا كنوز المعمورة

وع المقهى الجسر بلبنان

كل واحد آخد صورة

عن تقدير وعن إيمان

بعنقو لابسها دخيرة

إميل رزق الله:

نحنا ملينا الدنيي فنون

تقدمنا وما رجعنا ل خلف

وعنّا بجوقتنا قانون

ما بنقبل بقول الشلف

إن جلنا بالزوار عيون

والواحد قدّرنا بألف

بعينين الحقيقة بكون

مش غلطان بتقديري

طانيوس عبدو:

يا زهر الروض البسام

ضمّ جنينة يا عيني

بتعطي للشاعر إلهام

بيصبح رجاح العينه

هالله هالله ع الإيام
شو اعتزيّت يا جنينة
كان الباشا فيكي ينام
ع قطّوعة حصيرة

بحسب تركيبة الحفلة تبدأ من القرادي، وبما أن الجوقة مقسومة إلى حلفين، تقوم معركة. سنأخذ ردتين من محاورة فيها الكثير من الجمالية. يقول أنيس:

نحنا بالشعر المختار
فتّحنا دينين الطرش
وعا سطح النجم الغرار
تمددنا ومدّينا فرش
ومنبرنا ع الخلد إن طار
مش بالمسمرّ وبالهرش(*)
طار باسمي واسم الجار
وعنو استوفينا الميري

يرد علي الحاج:

أنوس بيعجبني كتير
بيعقل لما يجن الليل
وبيعجبني لما يطير
ويغطي جناحات سهيل

(*) الجار والحليف هو الشاعر إميل زرق الله، والمسمر يعني طانيوس الذي كان أسمراً، والهرش علي الحاج.

وسوسحتي لما بيصير
يزرع قمح ويسرج خيل
عالقرقة بيحط النير
والسَّرج على البكيرة(*)

ومثل العادة ستقوم المعركة الزجلية على المنبر، ويبدأ طانيوس عبده وإميل رزق الله:

يقول طانيوس:

ياما بعصير الشعر حبّرت القلم
وقلب الزمان من سطوتي صابو الألم
وكل عمري بس إفتح معركة
سوكر نجاحي ويحتمي فيي العلم

ويرد إميل:

مع غير ناس من قبل كنا نسمعك
ويثنو عليك ويصرخوا ما ألمعك
وبأغلب الأحيان تنجح إنما
مش كل مرة بتسلم الجرة معك

طانيوس:

عملت مع أهل السلامة مسالمة
وبالسيف هديت النفوس الظالمة
وعندي إرادة إن جرتي دليتها
ع البير بدها تضل تطلع سالمة

(*) البكيرة هي العجلة التي يبلغ عمرها سنة واحدة.

إميل:

لو كلت مهما كنت مشتد القوى
ع مليري بتلولحك نسمة هوا
وجرّتك عا بيرنا إن دليتها
بتروح هي وإنت والحبلة سوا

طبعاً بطول الموضوع ويتدخل به القصيد، ليقفل بقفلتين فيهما كثير من الطرافة.

يقول طانيوس:

بعرف عليي اللي مكبّو حنّ
بيقدر بسيف اللطف يدبحني
لكن على المنبر بحرب الفن
ما فيش قوة زلم تبطحني

يقول إميل:

عجبتني شو السر مش مخجول
خمنتني ناسي شو عامل فيك
كل عمري أبطحك وتقول
قوم عني شوي تافرجيك

يرد طانيوس:

بيقول بطحني بنص ميدانو
والشعر ما بيكون بالقوة
قوة القوال بلسانو
مشعال يهدي الناس ويضوي

يرد إميل بطرافة:

القوال بعرف بالذكا مشعال
لكن عداوة بينك وبينو
إن كان بلسانو قوة القوال
إنت شو عندك من القوة
وحامل لسان مقروم تلتينو(*)

ونسمعه مع إميل:

شريكي عقلو كبير كتير
وكل عمرو خواض اليم
ما بيرمي حالو عن شير
الروشة وتحت الموجة دم
بينزل يتحمم بصير
خلفو في عاطفة الأم
البتحمم ابنا وبتصير
تغنيلو غلّو غلّو

طبعاً بعد الجولة الأولى تبدأ الجولة الثانية بين علي الحاج وأنيس روحانا.

يقول أنيس:

من بعد ما شريكي ترك دورو إلي
شرف وكفي عن شريكك يا علي

(*) من المعروف أن طانيوس عبده كان شخصاً طريفاً وكان يلدغ بحرف الراء.

حتى بمقهى الجسر نعمل مهرجان

يملي قلوب الزلم خوف وبلبلة

يجيب علي الحاج:

من وقت ما جفلك على المنبر وعي

يتخسر معي وبعد الخسارة بتدّعي

فن المعنّى صار ورقة يانصيب

لو ربحت نمرة في أمل تربح معي

وبحسب مخطط الحفل أو التركيبة كما سبق أن ذكرنا، يفصل إميل القصيد بدخلة على الغزل، ويقول:

يا ابن الحاج صيتك صار مالي

البسيطة من الجنوبي للشمالي

وأنيس شاعر زكي ملا محلو

وسد فراغ شحرور الفغالي

وتنفرض كان هالقول بمحلو

من عنتر وبو زيد الهلالي

برغم هالمقدرة والبطش كلو

إن كنتوا أسود عسروج الأصايل

بتقتلكن بلحظتها غزالة

ويدخل الشعراء على الغزل، وهذه ردة شهيرة جداً لطانيوس عبده:

نجينا نقول البدر متلك بالخدود

منين بدو يجيب جوز عيون سود

وزنود متل الشمع ع عيد الكبير

ومساكب الهليون بخيال الزنود

يقول إميل:

عا نبل عينك عند ما بصبري بطش

قلت اسم بدفتر الأحيا انخطش

ع موردك يا عين شو كترت عيون

كلها بتقول طقو من العطش

أنيس يقول:

مش كل أبيات المعنّى ع الهوا

بيوصلو ع دينة السامع سوا

أبيات منها الوحش يخجل بالحراش

وأبيات بدور المعابد تنزوى

شيخ الشعراء علي الحاج يقول:

قالو متى هالشيب بالشعر انتشر

بيريّح العلقان بحبال الهوا

لكن أنا بالعكس عن كل البشر

لا الشيب ريحني ولا القلب ارتوى

المعاصرة والحوار الزجلي

علي الحاج:

إن حكّيت بالمهماز مهري عن جنب
بيقطّف نجوم السما متل العنب
من قدح نعلو النجم زايد اشتعال
وبشعر ديلو قطّرت نجمة بو دنب

الشحرور:

مسمار مهري بجبهة الدنيا غرز
وخيوط نور الشمس في سرجو درز
لولا نفض ديلو جرف غيم الفلك
وشكشك نجوم الزهر ع إجرو خرز

أنيس روحانا:

في طبّجي شاهد حصاني بطلتو
تشارط معي وقللي حصانك فلتو
وعند هبجة مدفعو مهري انطلق
راح ورجع من قبل وصلة كلتو

من هذه الأجواء المستوحاة من الجيل الذي سبق، ومن جوقة شحرور الوادي، انطلق الزجل، بالمبارزة الكلامية، وبالمعدات الحربية: الدف والدربكة. والاحتياط جوقة من الرديدة، ووسائل الهجوم كانت خشّة دف وتصفيق كف. غنائم المعارك الزجلية بالنسبة إلى القوالة كانت اكتساب ثقة الجمهور وتقديره.

إلى جانب المعارك الزجلية، كان هناك أنواع أخرى من المعارك كخفة الظل (النهفة) والمقارنة والمفارقة التي تحكم الجواب. لنسمع مقطع بين أنيس وعلي الحاج:

أنيس روحانا:

المنبر إذا عقدة لسانك حلها
أو زودوها قيمتو بمحلها
لكن لساني لو سكت ع منبري
بتسكت لسانات المنابر كلها

علي الحاج:

كلمتك لو كان أسعد قالها
السامع قِبلها واتحنا كرمالها
ومع كل هذا غمّض عيونو وراح
والمنابر باقية ع حالها

أنيس روحانا:

لما عريس الفن عن عرشو هوى
تمنيت لولا الموت ياخدنا سوا

كنت جندي وصرت بغياب الرئيس

ع كل جندي فن مرفوع اللوا

علي الحاج:

معدن الشحرور لما بينعرض

جوهر منقا وما بيقبل بالعرض

تمنيت لولا الموت يجمعكم سوا

تكرم عيونك يا أنيس بدنا غرضْ

لم تتوقف جوقة الشحرور لكن بقيت في حركة دائبة، نلمح ومنذ أيام الشحرور أنهم لم يكتفوا بالمرجلة ولا بالنكتة فحسب، بل كان هناك مواضيع، وهذا مقطع من موضوع بين علي الحاج والشحرور. يقول الشحرور:

يا علي من بعد معركة الزمان

خللي لسانك عن جنانك ترجمان

ما بين بحر وبر نحنا واقفين

نقي اللي انت بتريد وعليك الأمان

علي الحاج:

ما بين بحر وبر بتخيّر علي

وبدك جوابي يكون يا أسعد جلي

كل عمري كنت خواض البحور

خوذ انت البر والأزرق إلي

الشحرور:

يا علي من كتر ما إنك فهيم

ما كنت تعرف تسلك الدرب القويم

بالبحور المالحة شو طمّعك

نسيت إنو البرّ فردوس النعيم

علي الحاج:

خيرتني ونقيت حصة صالحة

وكفة الميزان كانت راجحة

مصدر حياة المي بكل الدني

والمي أصلا من البحور المالحة

الشحرور:

البحر مية مالحة دخلك بلاه

والبر أعلامو على العالم نشر

ولو ما يكون البر خزان المياه

من العطش والجوع بيموتو البشر

علي الحاج:

البحر مصدر خير ما منو ضرر

من فرد موجة بينطفي قدح الشرر

والبحر قبل البر الله كونو

مشحون جوفو باللآلي والدرر

الشحرور:

مرة طلع تنين ع الشاطي وسلك

صوب الفريسة قاصد يجبلا الهلك

من البر طلّ الخضر شاهر شلفتو

طحّن عظامو وزلغطت بنت الملك

إذاً، تاريخ المنبر الزجلي تركز على المبارزة الكلامية وحرب القوافي وخوض المجال واحتلال الجبهة، وعار الهزيمة، وسيف ورمح، الحرب الكلامية عايشت ورافقت كل تاريخ المنبر الزجلي، وحتى الآن لم نستطع أن نتخلص منها إلا بشكل بسيط.

أنيس:

الموت قدامك براس القايمة
نقي على فكرك طريقة ملايمة
يا الهزيمة قبل ما تخوض المجال
يا الموت بشفرة مهند صايمة

علي:

الإنسان لما يكون في عندو ثبات
بيظل اسمو حي لولا الجسم مات
زرع الهزيمة غلتو العمر الطويل
وبعد الهزيمة شو لها طعمة الحياة؟

أنيس:

يا علي من ساحة الموت اشتراك
وما بين سيف ورمح واقع بالعراك
الرمح قدامك بتفتحلك طريق
المقبرة والسيف تيسكر وراك

علي في أطرف جواب:

لما عليي الرب صب مراحمو
موتي وحياتي تقاتلو وتلاحمو

الموت اشتراني احتجّت عليه الحياة
وصارو عليي تنينهن يتزاحمو

– قطعة ثالثة من الزاوية الاجتماعية من حوارات جوقة الشحرور بين أنيس روحانا وعلي الحاج.

أنيس:

أشجار شتى بظل الله لاطية
شي عاطية أثمار شي مش عاطية
بفضّل غصون العالية من دون ثمر
على الغصون المثمرة والواطية

علي الحاج:

الإنسان بالتيجان لو بتزيحو
ما رضي لكن بعقلاتو رضي
العندو كرامة قص غصنو وريحو
ولا تقللو من الثمر غصنك فضي

أنيس:

لو ما حياتي ع زنودي تنحمل
للمنابر بدر شعرك ما اكتمل
وإن مت بدك بعد موتي يا علي
ترجع لعادات القديمة بالعمل

كان الراحل علي الحاج أستاذ مدرسة، فيقول لأنيس:

العادة القديمة كانت بصفحة كتاب
أستاذ بالتاريخ وعلوم الحساب
خايف من الشحرور يزعل من علي
ويقول حمّلني حجر فوق التراب

أنيس:

عادتك يا غراب تقليد الحجال
ع منبر الشحرور ما فيلك مجال
أفضل إلك بالمدرسة بين الولاد
مش خرجك توقّف بساحات الرجال

علي:

علّمت صف ولاد عندن اجتهاد
من متايلي صارو رجالات البلاد
وما تغيّر عليي نظام المدرسة
بعدني ع المنبر معلّم ولاد

لنرجع قليلاً خطوة إلى الوراء، ونرى كيف تحرك المنبر الزجلي تاريخياً حتى تخلص من الأمور التقليدية التي تتضمن الحصان والسيف والرمح. نجد في المحاورة التالية كل أدوات المبارزة القديمة.

أنيس:

يا حاج حرب الباردة وأربابها
ما فيش مرة كنت من أصحابها

ما بحب إلا سيوف عم تلطم سيوف
وخيول ترقص حنجلة بركّابها

علي الحاج:

بحرب سفك الدم لا توسّع مجال
من بعد ما بو حسين بالميدان جال
من سطوتي وقّفت دقّات النّبض
والدم حجّر في شرايين الرجال

أنيس:

من الصخر مش كل العيون تفجرو
ولا كل نبتات المراجل شجرو
بنصحك داري جنابك يا علي
من دم يغلي بقلب بغضك حجّرو

علي:

كلمة على جناح النسيم وسارحة
برهنت فيها عن عداوة مصارحة
بغضك إلي لا بد ما يكنلو سبب
مجروح مني والحقيقة جارحة

أيضاً نقرأ أربع ردات في حوار نشتم من خلاله روح الحداثة والقرب.

أنيس:

فن المعنّى موهبة مش اكتساب
ولو من وجودي منبرو تختخ وساب

في لي حساب مع كل شاعر منبري
ويا فضيحة المدبون في يوم الحساب

علي الحاج:

قد ما بسنّ المعنى تعتلي
وتاخد وتعطي بالزكا والمرجلة
ومن كل من غنى زجل تطلب رصيد
بتضل جابي عند أستاذك علي

أنيس:

خلقان بفنون الزجل مطمح قُبل
ومن طيب شعري وسمعتي الكون انطبل
متل الأمير بشير قدّمت الزمان
كنت جابي وصرت سلطان الجبل

علي الحاج:

سلطان وهمي التاج عن راسك سقط
لو جيت أوضعلك على حروفك نقط
السطان بيكنلو رعية بالبلاد
وحضرتك سلطان ع بيتك فقط

لم يكن المنبر الزجلي بعيداً عن المعاصرة، نلمس في بعض المواضيع رائحة هموم العصر.. والحرب.. وخطر الذّرة على الإنسانية.

هاتان القصيدتان من موضوع تغنى في بيروت في النادي الدولي، وهما بين علي الحاج وأنيس ورحانا.

أنيس:

شعوب الأرض من فجر الخليقة
منها مقيدة ومنها طليقة
ولوما الفكر للعلة اختبرها
ما اهتديو على درب الحقيقة
عصور جدودنا ناخد عبرها
والحكام ربيت ع السليقة
ومن زنود الغليظة ومن بطرها
ومن التحكيم بسيوف الرقيقة
وأهالي عصرنا ثاقب نظرها
من بعد الحسابات الدقيقة
استهدى الفكر ع الذرّة وشطرها
وأوجد ضدها ملاجىء غميقة
ومهما القنبلة يكبر خطرها
بيتأمن على أسهل طريقة
من الرادار أعطانا خبرها
الملاجىء بتحفظ بيوت جديدة
وبتهدّم بيوت العتيقة

وهنا يهاجم علي الفكر العلمي الذي اتجه نحو الشر بدلاً من أن يتجه نحو الخير.

أنيس الفكر صار يضر ذاتو
حاج تمدح بنور الفكر حاجي
ريت الفكر ما كسّر عصاتو

ويسر الكون ما حل الأحاجي

ولا غيّر ابن آدم من صفاتو

ولا الكوخ البدل بقصر عاجي

وبقي سطح البسيطة من بناتو

من أخطر مرض بوصف علاجي

ولعصر النور بطوي مؤلفاتو

وبعد النور يهبط للدياجي

والإنسان من علة خواتو

فكّر بالملاجي يكون ناجي

يعني سيّج الملجأ حياتو

سياج السوط بجوانح دجاجة

وبدل ما ينتظر ساعة وفاتو

وبدل الدفن واحد بعد واحد

يموتو فرد مرة بالملاجي

علي:

الغبّر من الذرة طرابين العريش

وأطعم التنين مش ممكن يعيش

بتسمم الحية إذا بتدوقها

وبتضل فترة الأرض ما تنبت حشيش

ونختتم بردتين قرادي من أنيس روحانا وعلي الحاج عن الموضوع نفسه، يقول علي:

المتحف بالصخر المنحوت

بيعطي عيون الناظر قوت

ولولا من آثار جبيل

ما تزين متحف بيروت

أنيس:

عصر الذرة بالإنتاج

قرّب كل شي في مسافات

وعم يعطي للطب علاج

من القبر يقيم الأموات

إن كان بدك يبقى منهاج

الماضي إلغي الطيارات

وصدّر أمرك للحجاج

بسيارة لمكّة لا تفوت

وكأن علي الحاج يرى ويشهد المأساة التي وقعت في الحج في تلك السنة، إذ يقول:

كنا لو رحنا زيارة

ع مكة نقعد شهرين

إن صار بالأرواح خسارة

بالمية واحد يا تنين

وتهويرة بالطيارة

بتقتل أكثر من ميتين

والضربة بالسيارة

ريحة دخان ومازوت

عفوية علي الحاج البعلبكي
وطرافة محمود حداثة

ركزنا على عصر المنبر المحترف، وخصوصاً مع الجوقة الرائدة والمؤسسة وهي جوقة شحرور الوادي، لأن هذه الجوقة بالنسبة إلى تاريخ المنبر الزجلي تبقى الرمز والمدرسة والنموذج.

قدمنا عرضاً سريعاً ودراسة مبسطة لدور الجوقة العظيم في تنظيم وإدارة المنبر والمساجلات، وعرضنا بعض أشكال الحوار، وبيّنا النقلات التي طرأت على الحوارات خلال مسيرة الجوقة التي استمرت 43 عاماً.

تركيزنا على جوقة شحرور الوادي لا يعني أنها كانت الوحيدة على ساحة الزجل؛ ففي نشأتها الأولى كان إلى جانبها جوقة "بلبل الأرز" لوليم صعب، وجوقة "نسر المزرعة" لمتري الدرزي، وخلال مسيرتها في الثلاثينيات والأربعينيات كان هناك جوقات "كروان الوادي" لكميل خليفة، و"زغلول كفرشيما" لميشال قهوجي، و"جوقة الأرز" لحنا موسى؛ لكن مع كل هذه الجوقات التي نشأت، بقيت جوقة شحرور الوادي بتماسكها وعطائها المميز، الرمز والمدرسة والنموذج. وظل الزجل يمارس دوره في كل المناطق وفي كل الضيع وفي كل القرى وعلى كل المجالات، وظلت الجماهير تسمع، وظل القوال يقول:

الله معك يا بيت صامد بالجنوب

يا لتحت سقفك ع الوفا ربيتنا

مش كتير عليك ترخصلك قلوب

وبنوب ما مندشرك يا بيتنا

هذه الأغنية من وزن المعنّى، ولها قصة طريفة، فعندما كتب كلماتها الشاعر الراحل أسعد سابا، عُرضت الأغنية على لجنة الأغاني في الإذاعة اللبنانية، وكانت الكلمات هي: "الله معك يا بيت صامد بالجنوب يالتحت سقفك علوفا ربيتنا، مش كتيرة عليك ترخصلك قلوب **عل العمر** ما بندشرك يا بيتنا"، وعلى كلمة "عل العمر" حصل نقاش بين لجنة مراقبة الكلمات ودار لغط، فاستعانوا بمدير الإذاعة يومذاك كاظم الحاج علي، وكاظم الحاج علي الشاعر المتذوق للكلمة الجميلة ومدير الإذاعة والجنوبي القح من النبطية، أعجب بكلمة جنوبية قح وهي كلمة "بنوب"، التي تعني باللهجة الجنوبية غير ممكن أبداً. وأصبحت اللازمة بالشكل الذي سمعناه "**بنوب ما بندشرك يا بيتنا**"، تماماً مثلي أنا الذي "بنوب" لا أنسى تفاصيل حركة المنبر الزجلي على ساحة الجنوب لأنني ابن الجنوب وقد عايشت هذه التفاصيل برمتها.

أنا يا رفاق من الجنوبِ

لنتحدث عن صورة الزجل في المنطقة التي قال عنها أمير الزجل رشيد نخلة، إنها أول منطقة دخل إليها الزجل. وإذا أخذنا **العصر الأول**، الذي سبق تأليف الجوقات في المنبر المحترف، نجد على الساحة أسماء: إلياس الفران، محمد السلطان، إلياس بدوي، منصور شاهين الغريب، يوسف الكحالة، أمين أيوب، إلياس قهوجي، فدعا صعب وغيرهم كثيرون؛ وفي الوقت نفسه كان يوجد على الساحة الجنوبية حركة قوالة نشطة نذكر منهم:

الحاج أسعد بعلبكي، دياب نجم من حومين التحتا، إلياس أبو خزالة من بنعفول، موسى شريم من حومين الفوقا، دانييل الحجار من أيتولي، قاسم أيوب من حاروف، نعمة الله ضاهر من زحلتا، داود جرنايا، وعلي الطبوش ونجيب النحاس من كفر ملكي، محمد طبنجة من البابلية، محمود حداثة من حاريص، وغيرهم.

هنا نطرح سؤالاً مهماً هو هل ترك القوالة آثاراً مكتوبة؟ مع الأسف كل ما قيل غاب مع الذين كانوا يحفظون وغابوا بدورهم، مع عدا القليل منهم. دياب نجم ترك كتاباً يدعى **سجن أهل الفن** وللأسف الكتاب مفقود؛ محمود حداثة له بعض القصائد في كتب **تاريخ جبل عامل**، وله القصيدة المعروفة "محاورة محمود وداود" بينه وبين قوال فلسطيني؛ محمد طبنجة جار بلدنا الصرفند من البابلية، حيث كان هناك قسوة الإقطاع وظلمه في الضيعة، ويبدو أن هذا الإقطاع لم يسلم من قصائد محمد طبنجة النارية، فلفقوا له قضية سجن بسببها، وأرسلوا من يفاوضه على السكوت، إن صمت خرج، إذا لم يصمت بقي داخل القضبان. وكانت هذه القصيدة المتداولة:

موت الفتى بالسجن خير من الجلوس
على النمارق في ديار الظالمين
عرّج قالوسك(*) عن دياراً
أهلها أشرار حتى تكون ع نفسك أمين

من قاسم أيوب، نسمع هذين البيتين من الغزل، يقول:

كنا كتار والحب قلّلنا
واليوم لا علينا ولا إلنا

(*) القالوس: هي الناقة الصغيرة.

أغنام صرنا والهوى جزار
سبحان من للذبح حللنا

إذا أخذنا **العصر الثاني**، أي عصر جوقة الشحرور وعلي الحاج وأنيس روحانا وطانيوس عبده وكميل خليفة ومتري الدرزي ووليم صعب وميشال قهوجي ووديع الشرتوني وغيرهم، وتطلعنا إلى الساحة الجنوبية، نجد كوكبة من أسماء الشعراء: علي الحاج البعلبكي، عباس نجم الحوميني، أحمد الحاروفي، إلياس شاكر، محمد محمود الزين، محمود فروخ، محمد بعلبكي، علي الحاج جوني، محمد علي درويش، وأكثر هذه الأسماء ساهمت منبرياً في إنعاش الزجل في كل مناطق لبنان.

عام 1943، تألفت الرابطة الزجلية العاملية بمجهود ومبادرة الشاعر الكبير علي الحاج البعلبكي. كان للفرقة يومها عز كبير، وكثير من مناطق الجنوب التي تهوى الزجل كانت تحتفي بحفلات هذه الفرقة. الجوقة كانت مؤلفة يومها من: علي الحاج بعلبكي، عبد الجليل وهبة، السيد محمد مصطفى، عبد المنعم فقيه، وأسعد سعيد. ولا أنسى أول حفلة أقيمت في الإقليم الغالي – الذي يعاني اليوم – إقليم التفاح، وفي عروسة الإقليم جباع؛ كان هناك جمهور غفير، وفي تلك الأيام تعرفت على الشاعرة حنينة ضاهر وعلى والدها الشاعر نعمة الله ضاهر، وكان من بين الحضور الصحافي الكبير كامل مروة صاحب جريدة **الحياة**، وأذكر أنه في نهاية الحفل، تكلم عن دور الزجل اللبناني وتأثيره في التعايش والألفة وجمع القلوب على المحبة. في السنة نفسها أقمنا حفل في سوق الغرب، وكان من حضورها الشاعر علي الحاج القماطي، وفي ختام الحفل التقينا وغنينا أنا وعلي الحاج القماطي وشاعر من سوق الغرب يدعى منصور البارودي وشهرته "منصور الزكا".

حفلات الزجل كانت ولم تزل شبه الأعياد للكلمة؛ يقول مارون عبود "من النادر أن تجد لبنانياً لا يعرف القول"؛ فاضل سعيد عقل في كتاب **تاريخ الزجل** يقول كلمة عن فؤاد حداد في تعريف اللبناني: "اللبناني يقول الزجل"، من هنا نجد التعلق بالتراث أي بالزجل.

كانت ردة المعنّى إذا قيلت في قرية أو ضيعة تنتشر على كل شفة ولسان، ومنذ صغري وأنا أسمع الردة التي قالها الشحرور في دير القمر:

شمس الضحى بالجو عقدت مؤتمر
واشتهت هجر الكواكب والقمر
وتنزل ع سطح الأرض تعمل راهبة
ع شرط يبقى ديرها دير القمر

أما الشاعر الكبير علي الحاج البعلبكي فله ردّة في جزين، يقول:

جزين دولة مجد باستقلالها
غلّة رجال الفهم فيض غلالها
قلب الشمس في قلب صخرتها اصطدم
دابت وسال النور في شلالها

علي الحاج البعلبكي بدوره له ردات كثيرة مليئة بالجمالية والعفوية والسرعة. وأيام كانت بيروت ست العواصم، وكانت ساحة البرج ست الساحات، مرت سيدة في تلك الساحة، وكان علي الحاج البعلبكي ماراً أيضاً، فإذا بحقيبتها تقع من يدها، فانحنى وأخذ الحقيبة وأعطاها للسيدة، فكانت هذه الردّة:

لما بقلب البرج خطو قدامها
كلفت قلبي يصير باستخدامها

ولما وقع جزدانها قلبي وقع
واحترت مين يلمّ من قدامها؟

* * * *

باب البوابة ببابين
ققولة ومفاتيح جداد
ع البوابة في عبدين
الليل وعنتر بن شداد
حلوة وشباكيك ودار
العاشق غط العاشق طار
نغمة ونار وعوّادين
وعوّادين ونغمة ونار
ونارين ونغمة وعواد

هذا النوع يسمى بـ "القلاّب"، وهذه القطعة تجمع بين فلكلورنا والفلكلور الفلسطيني.

بعض القوالة وفي بعض المناسبات أرّخوا لأحداث حصلت. وسنستمع إلى أغرب تأريخ من محمود حداثة عن طريقة تهجئة "أبجد هوز" في أيامه.

بين شحرور الوادي وابنه مقابلة جميلة والتي كُتبت فيها الأشباه الصعبة من: المجزّم والقلاّب، وكرج النمل والمرصّع... إلخ.. هذه التسميات المأخوذة من كتاب **علم البيان والبديع**؛ في هذه المحاورة، أذكر ردة تبدأ كلها بحرف الشين، يقول:

شمس شبيب شرقت شباش
شقعنا شرارتها شواكيش

شالك شرشب شفلك شاش

شديتو شنطة شاوبش

والى طرافة محمود حداثة نستمع، وقد وعينا على تهجئة: ألف فتحة أ. ب. سكون. أب، وفي تلك الأيام لم تكن توجد الفتحة أو السكون، إذ كانت الفتحة نصبة، والسكون جزم، والكسرة خفضة، والضمة رُفعة، يقول حداثة:

عندي قصة وشرح جديد
متل الفضة والعسجد
يا قاري بكتاب الله
اضبط ع سورة أبجد
أبجد أنسب أنجزمب
جنسب جا
أو جزون أد
مقرونة باسم الرب
قول الباري ما عليه رد
عبرة للشايب والشب
آمر فيها قيام الحد
بالمعنى مصبوبة صب
أمعن فكرك واتهجد
شكّل هوز هنسب ها
والواو بشدة ونصبة
والزين بجزم كتبها
هيئتهَا متل العصبة
اقرأها يا كاتبها

ما بين جمعية وعصبة
حروف تلاتة حاسبها
لا حرفن خس ولا زاد

ولننتقل إلى كلمن:

كلمن كنسب لنسب لا
مْرفع نون نُنجزمن
ريت لساني ما يبلى
يللي بيطلّع ها الفن
لا أمي كانت هبلة
ولا بيي عقلو جن
من يوم اللي كانت حبلى
ترنحت بمدح الأجواد
شكّل سعفص سنسب ثا
وحط الجزمة فوق العين
وإل ف نصبة لا تقسى
وال صاد بجزمة يا زين
من أصبح فيها وأمسى
لا يتعامل فعل الشين
وإبليس الطاغي ينحس
عند قرايتها يجمد
قُرشت ترفع خفضاً ري
شنسب شا والتي تُجزم
من لم يقرأ لم يدر

بعلم منه علوم

نظمو نبعة من صدري

ما خلاّ ع قلبي هموم

عند الله تعظم قدري

صايم لله وسجّاد

ثخذ قنثب خنسب خ

ضع رفعة بجنب الرفعة

أكتبلك عنها نسخة خليك أولى بالشفعة

مقرونة باسم ولبخة

في كرسي مرتفعة

والباري جاد وأسخى

وايش ما تطلب منو جاد

ويختتم:

أبجد هوز قاريها

حطي كلمن بالمصحف

سعفص قرشت راويها

ثخذ ضظغ أوعى تخاف

نزل المتوكل فيها ع محمد سيد الأشراف

أولها مع تاليها أسماء ملوك الأمجاد

بداية مشواري الزجلي

تاريخ المنبر الزجلي بحر عميق.. عميق جداً، وليس في وسع أحد الوصول إليه، ولا نستطيع أن نعرف متى وأين بدأ، لكن نستطيع أن نؤكد أن هذا المنبر بدأ مع أول قوالة التقوا، أحدهم قال بيتاً والثاني أجابه.

السؤال هو هل هذا القول له شبيه في التراث الأدبي القديم، الجواب: طبعاً. كل ملتقىً أدبي أو ندوة شعرية تشبه المنبر الزجلي، وذروته كانت عند العرب سوق عكاظ التي كانت تجتمع فيه القبائل كل عام ولمدة 20 يوماً في شهر ذو القعدة تحديداً، وكان الشعراء يقولون أجود ما يقال وكان الحكَم هو النابغة الذبياني. زجلنا المنبري في بداية حفلاته كان يكتب في الإعلان "العكاظ الزجلي اللبناني"، وكانوا يضعون حكَماً حتى يميز ويفرق بين شاعر وآخر؛ وفي مباراة المدينة الرياضية في سبعينات القرن العشرين كان الحكم هو الجمهور.

من ناحية المحتوى الهجومي الذي يتضمن بعض الهجاء أحياناً في الخطاب والجواب لدينا أيضاً في التراث الأدبي القديم بعض الأمور المشابهة، وإذا درسنا شعر النقائض الذي دار بين أشهر الهجائيين الثلاثة: الأخطل والفرزدق وجرير، لوجدنا الطريقة نفسها التي يستعملها القوالة حالياً.

وهي طريقة النقض، بين الأخطل وجرير والفرزدق هناك محاورة من ثلاثة أبيات:

يقول الأخطل:

أنا القطـران والشعراء جربا   وفـي القطران للجربا دواءُ

يرد جرير:

وإن تكُ زق زاملة فـإنـي   أنا الطـاعون ليس له شفاءُ

يختتم الفرزدق بقوله:

أنا المـوت الذي آتٍ عليكم   وليس لهـارب منـي نجاءُ

تذكرنا هذه القفلة ببيت للأستاذ إبراهيم الحوراني وجواب إلياس الفران؛ قال الأستاذ إبراهيم:

شفت الدب حرير يكد
عمبحيك ألاجة

أجاب الفران:

يلعن بي الدهر الدب
العمل المثلك خواجة

تحدثنا في الحلقات السابقة عن ثلاثة عصور للمنبر الزجلي: عصر ما قبل الاحتراف وأسميناه عصر إلياس الفران؛ عصر الاحتراف أو ما سمي بعصر الشحرور؛ والآن نحن في عصر ثالث وبداية عصر رابع، لكن هذه العصور الأربعة التي تمتد من أيام إلياس الفران وحتى يومنا هذا، عصور

متداخلة متشابكة وكل جيل زجلي تجد فيه القديم والجديد الذي يولد. جيل الفران وعصره من مواليد عام 1850 تقريباً؛ عصر مواليد جيل الشحرور عام 1900؛ هذا الجيل.. جيلنا مواليد عام 1920، ومن معنا من مواليد 1940، والآن على المنبر جيل جديد يظهر.

في الحلقات السابقة تحدثنا وركزنا على العصر الزجلي **الثاني**، عصر بداية الاحتراف، والآن أصبحنا مع قوالة العصر الثالث الذي بدأ في أوائل الخمسينيات. مع عصر الشحرور كان يوجد ثلاث جوقات زجل: جوقة الشحرور؛ جوقة بلبل الأرز؛ جوقة نسر المزرعة، وكان هناك عدد محدود من المجلات الزجلية أذكر منها: **الشعر القومي، أمير الزجل، مرقد العنزة، والعندليب.**

مع العصر **الثالث**، أصبح عدد المجلات الزجلية عشر مجلات، وعدد الجوقات يقارب عدد المجلات، مع الأخذ بالاعتبار نوعية الجوقات والمجلات وشهرة شعرائها وطول باعهم المنبري.

قللي في حلوة بها الفي
كتبتلا اسما عل ميّ
وسمّى الجيرة وسمّى الحي
ولولا شويّ سمّاني

إن ولادة جوقة زجلية عملية مركّبة وصعبة جداً، وتحتاج إلى وقت كثير، لأنك لن تستطيع أن تفبرك قوالاً بين ليلة وضحاها، من هنا كان تأليف الجوقات يخضع إلى تغيير وتبديل في السعي نحو الأفضل والتفتيش على الأصلح منبرياً.

بالنسبة إلي كانت بداية مشواري الزجلي في القرية وفي سهرات الجوار. سافرت إلى فلسطين، وفي فلسطين أخذت دور شاعر يقول الزجل الفلسطيني، هناك غنيت وتعرفت على شعراء عنابا مشهورين من لبنان مثل محمد محمود الزين ويوسف حاتم، والزميل العزيز أبو علي زين شعيب الذي جاءني إلى فلسطين أكثر من مرة، وأكثر الشعراء الذين كانوا يطلون على فلسطين كنت أرتب لهم الحفلات وأشترك معهم.

بعد نكبة عام 1948، اشتركت في جوقة زغلول كفرشيما وغنيت في حفلات متفرقة مع حنا موسى وزين شعيب، واستقريت في منتصف الخمسينيات في جوقة زغلول الدامور.

الشاعر الراحل الكبير خليل روكز، اشترك لفترة من الفترات مع جوقة زغلول كفرشيما وانتقل إلى جوقة زغلول الدامور، وألف جوقة كان اسمها جوقة الجبل، وللتاريخ أقول إن جوقة الجبل أول ما تألفت كانت تضم خليل روكز وزين شعيب وأسعد سعيد، وتألفت سنة 1954. ولدي للذاكرة صورة تجمع بيننا، وأخرى لحفلة منبرية أقيمت في قهوة الصديق علي الدورة. لكن المؤسف أنه ليس لدي أي نص أو شريط مسجل.

الملاحظ أن الجيل الزجلي **الثالث** من مواليد العشرينيات، من الغريب أن نكون خليل روكز وزين شعيب وزغلول الدامور وأنا من مواليد عام 1922، وأن حنا موسى وأنيس الفغالي، وعبد الجليل وهبة، والسيد محمد مصطفى، وعبد المنعم فقيه، وجان رعد، كانوا كلهم مع فرق سنة واحدة يشكلون الجيل المنبري الثالث.

العصر الزجلي الثالث الذي بدأ في الخمسينيات كان يضم جوقتين بارزتين: الأولى جوقة زغلول الدامور؛ وجوقة الجبل بعد أن أخذت تركيبتها في شعراء مقتدرين.

في تلك الأيام، كان العصر الذهبي للزجل، وكانت كل جوقة تغطي في حفلاتها كل لبنان من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ولم يكن عند أي جوقة من هاتين الجوقتين ما يقل عن 100 حفلة صيفية ما عدا الإذاعة والتلفزيون والمناسبات. بالطبع سنعود بعد ذلك إلى تركيبة كل جوقة ودورها وشعرائها ونوعية حواراتها.

نبدأ من جوقة زغلول الدامور التي كانت بعد جوقة الشحرور أكمل تركيبة منبرية بالشكل والمحتوى، صوت وفكر وشعر وفكاهة جميلة، اجتمعت بالزغلول وأبو علي زين شعيب وجان رعد وأسعد سعيد، ورحم الله نجيب حنكش ومقولته الشهيرة: "مش دعاية سيرة وانفتحت".

الحفل الذي نتوقف عنده، كان بين جان رعد وأسعد سعيد وزغلول الدامور من خلال رحلة قمنا بها إلى فنزويلا عام 1963؛ إذ كان للجوقة نشاط مهجري واسع إلى جانب نشاطها في لبنان.

جان رعد:

يا أسعد بناديك تتلبي الندا
خدلك نصيحة للملوك بتنهدى
لو كان عندك أهل تلتين الدني
وما كان عندك مال ما عندك حدا

أسعد سعيد:

يا جان لا تطمع بمال بتجمعو
إلا بأهلك مركزك ما بترفعو
رزق الدني بيضل هوني بها الدني
وما في حدا راح وأخد مالو معو

جان رعد:

جمع المصاري لو تعدو من الطمع
ما كان عندك مال بالخزنة اتجمع
خيك إن شافك ما بيتعرف عليك
ولا بيسمعولك كلمتك بالمجتمع

أسعد سعيد:

المال ثروة بتنسرق وبتنوهب
والأهل ثروة دائمة وما بتنهب
لكن لا تنسى شو كتاب الشرع قال
لا تعبدو ربين الله والدهب

جان رعد:

نحنا جمعنا المال مش تانعبدو
جمعناه حتى بكل ضيقة نوجدو
مر المسيح واحتاج فلس الأرملة
ولو ما إلو عازي ما كان استفقدو

ونتابع مع الحفل الذي أقيم في فنزويلا مع أسعد سعيد وجان رعد وزغلول الدامور.

جان رعد:

يا أسعد عاشت العالم ليالي
ع شرع الغاب في عتم الجهالي
وساعة ما ابتدت فينا الحضارة
عرفنا قيمة كنوز اللآلي

بفضل المال بنينا قصور ورفعنا علالي
ورجّعنا لقيصر كل بارة
متل ما قال الله بالرسالة
أنا بحاكيك عن خبرة وشطارة
برأي الكل مش رأيي لحالي
بدون المال هالدنيي خسارة
وإذا ما بترجع معبي جيابك
ما فيك تفيد أهلك والأهالي

أسعد سعيد:

يا حنا المال مهما يكون سامي
أنا رَحْ فهمك قصدي ومرامي
متل أهلك ولا تهلك بصونو
ثروة ومقدرة وعز وكرامة
الحفظ أهلو ونما غلة غصونو
ونجي قلبو من سهام الملامة
وع وج اللي المجد علاّ حصونو
رضا إمو ورضا بيو علامة
يوسف في مصر حقق ظنونو
بمال ومملكة ومقام سامي
مش بالمملكة والمال وحدو
رجع يوسف لأهلو بالسلامة

بعد هذا المقطع عن المال والأهل بين جان رعد وأسعد سعيد، نتابع زجلية لطيفة لزغلول الدامور وأسعد سعيد وجان رعد.

الزغلول:

لا بـدي رزق زيـادة — ولا بعينـي مـال
بيكفينـي بـأرض بلادي — خيمـة وعـرزال
بـلاد الفردوس بـذاتـو — ملعـب للنـور
انزرعـت كـل جنينـاتو — ورد ومنثـور
والشربيـن ونسمـاتو — وصـوت العصفـور
شـلال بغنيـاتـو — يجـاوب شـلال

جان رعد:

مهجـر شاغلـي بـالي — وبـالقلـب وقيـد
كل مـا بغنـي مـوالي — الحرقـة بتـزيـد
اشتقت لمـوطنا الغالي — وصفيـت بعيـد
غيّـر يـا الله الحـالة — مـن حـال لحـال

أسعد سعيد:

بلادي السحر بعينيهـا — بيحكـي وبيقـول
وعيـن الـرب حواليها — بتسهـر ع طـول
لا سهول بيقـرب ليهـا — بـالدنيـي سهـول
ولا جبال بيعلـى عليها — بـالدنيـي جبـال

الزغلول:

اشتقنا وصار لازم نرجع — مـن بعـد سنيـن
ع الضيعة يللـي منهـا — بنقشـع صنيـن
ومن وادي التلة نطلـع — لكـروم التيـن
نـاكل ناكل تـا تشبـع — ونعبّـي سـلال

من حوارات جوقة زغلول الدامور

الزجل اللبناني ابن الضيعة وبدأ من مناسبات الضيعة، قبل الاحتراف تعرف إلى بيروت في بيروت الوجهاء، وليس من المستبعد أن يكون أصحاب هذه البيوت من ضيعٍ تعرف هذا اللون الزجلي؛ في الأربعينيات دخل الزجل إلى الإذاعة، وفي الستينيات كان له الصدارة في برامج التلفزيون، وكان المهم أنه عرّف كل الشعب في كل مدنه وقراه على الزجل والتراث الأصيل.

وقد واجهت الشعراء مشكلة، لأن جمهور التلفزيون غير جمهور الحفلات، لأن في الحفل يجيء الناس ليحضروا الشاعر، بينما في التلفزيون يذهب الشاعر إلى بيوت الناس. أذكر ردّة للشاعر الكبير علي الحاج بالتلفزيون في أول حفلة غنى بها مع جوقة الشحرور:

كان المغني تروح حتى تحضرو

صار المغني اليوم ع بيتك يجي

ومن يريد دخول بيوت الناس، يجب أن يكون قريباً من الناس يحبونه ويحبهم. ومن هنا كنا نحمل هم توصيل الزجل الجميل إلى كل الناس، الذين يعرفون الزجل، والذين لا يعرفونه. كنا نبسّط الحوار وبدلاً من غناء الردة كنا نلقيها إلقاءً، لأن الغناء قد يضيّع المعنى عن الذين لم يعتادوا على تركيب ردة الزجل. حتى الأطفال كنا نحمل هم إيصال الكلمة لهم، وكنا نقول قرّادة

بسيطة من سطرين مضحكة لكي نحبب أطفال وطننا بتراثهم الأصيل النابع من تراب الوطن.

حركة المنبر أيضاً أصبح فيها تبدلات ليس تلفزيونياً فحسب، لتقريب الكلمة إلى قلوب الناس، بل كان على المنبر أيضاً حركة، وإضافات لم تكن موجودة على المنبر القديم، الإضافات هي قصائد تم تحضيرها وتتكرر في كل حفلة ويطلبها الناس. قصائد كانت تتركز على نوعين: غزل أو نكتة من شاعر على شاعر آخر. هذه الإضافات ليست جديدة، ولكنها كانت تحدث بشكل آخر؛ ففي أيام الشحرور كان يتحرش شاعر بالجوقة، فيقوم الرداد ويجيبه عنها.

كان هناك شخصية طريفة لم أعرفها شخصياً ولكن سمعت عنها وتتمثل بالشيخ شاهين حبيش. ومن الأشياء التي كنت أسمع عنها عندما كنت صغيراً جواب الشحرور للشيخ شاهين حبيش، يقول:

يا شيخ شاهين حبيش ويشك ويش

قديش صرلي بنصحك قديش

الناس مشيت ع طريق النور

وحضرتك ماشي على الطفيش

وكان هناك شخصية حاضرة في تلك الأيام، حيث قال الشحرور:

متل ما مزيّنة بطلة الجمهور

مبهدلي بالشيخ شاهين حبيش

في الستينيات أصبح اللون الفكاهي يأتي من داخل الجوقة وليس من خارجها. وجوقة زغلول الدامور كان فيها زميلنا الخفيف الظل الناعم الكلمة

جان رعد الذي كان يتحاور بالقصيدة هو وأبو علي. ومن القصائد المشهورة قصيدة اسمها "كركوبة" قالها جان رعد لزين شعيب:

يا زين راح دلك ع كركوبة
إلها بمأوى سنين مزروبة
يعني إذا بتشوفها يا فلان
بتقول هيدا كل مطلوبي

عمرها بينوف ع الطوفان
بنوح التقت ع كعب خروبي
وخدّها بحَب الصبا مليان
شو الماركة، يمكن بزر لوبية
بتما شهر لو بيقلح الفدان
بيجوز يحضالك بشنغوبي
ومع كل هيدا بتعشق الشجعان
قلا بإنك حاضر حروبي
وجيب سيف وعلق النيشان
وقلّد صلاح الدين أيوبي
ويا فرحتي تا شوفكن عرسان
وأعمل بعرسك كم حوروبي
وما لحقت الفرحة علينا تبان
طل بيا وقال يا ابن شعيب
مالك نصيب البنت مخطوبة

أيضاً في الستينيات أصبح هناك حركة ثانية للمنبر، إذ تحرر من كلمة المبارزة واستعمل الموضوع، الموضوع نقل الحركة المنبرية من بهورة وعنترة إلى مناظرة. وهذا مثل من حفل بين أعضاء جوقة زغلول الدامور: جوزيف الهاشم، زين شعيب، أسعد سعيد، وجان رعد، نتناول موضوع العلم والفن.

كلك حلا يا موطني المحبوب
يا مسوسح بحسنك قلوب قلوب
لو من جبالك هالقمر ما كان
ضوا الدني وخلا الظلام يدوب
والشمس فيك بتغمر الوديان
ببسمة شروق ودمعتين غروب
وأرزك الخالد ع مدى الأزمان
عمر الأزل ع ورقتو مكتوب
وأرضك عدا عن حسنها الفتان
أرض المواهب والزكا المطلوب
مهما اعتنى بتطويرها الفنان
بيضل عاجز والفكر متعوب
كلك مواهب يا جبل لبنان
شطك وجردك للنجوم دروب
والطير عندو موهبة ألحان
بالحنجرة منها الوتر مسحوب
وكيف ما جلت عينك بكل مكان
يا ضيفنا من أهلنا محسوب

الموهبة مش بس بالإنسان

إسأل الزهر بالصخر بيقلك

حتى الحجر ببلادنا موهوب

أسعد:

العلم يا زغلول كوكبنا المنير

والفن بيخلي الدني حلوة كتير

وتا نفترض انك رح بترجع صغير

وأهلك رح يربوك تتصفي كبير

وبين العلم والفن حبو يخيروك

شو بتفتكر فنان أو عالم تصير؟

الزغلول:

الفن البروحي عاش وبقلبي ربي

لا إنت حتى ولا أنا عنو غبي

وبين العلم والفن لو إمي وأبي

خيروني بفهمك شو مطلبي

العلم وقت الكان يمكن تكسبو

بس الزكا والفن خلقا وموهبة

أسعد:

الفن موهبتو بتجي ع الهيني

لا تشبهو بالعلم فكر واعتني

ونحنا بكلمتنا الحروف مزيني

عنا وطن ع العلم تاريخو بني

مش بالفنون.. بالأبجدية وعلمها

صفًا جبل لبنان أستاذ الدني

الزغلول:

العلم ابن الفن فكرة مأسسة

والفن فطرة وما حدا فضلو نسي

ولما الفينيقيين تفكيرن رسي

ع الحفر والنقش وع فن الهندسة

اخترعو الحروف وبالكتابة تفننوا

ومن فنهن خلقوا العلم والمدرسة

أسعد:

زغلول عينين الحروف الخافية

ضحكت ع هالحجة العا فكرك لافية

اعطيتك لعلم الطب صحة وعافية

وشعرك ابن علم الوزن والقافية

ولو ما العلم تكشف كفوفو الدافية

موجة إلكترونات كانت خافية

عا شاشة التلفزيون فنك ما ظهر

لا بصوت مسموع ولا صورة صافية

الزغلول:

كانوا متل ما العلم ناقوسو ضرب

بالفن والأشعار يتغنو العرب

وبعصرنا التمثيل ع الشاشة اقترب

والفن متل الشمس نورو ما غرب
وقبل الإذاعة وقبل عصر التلفزة
موجود فن السيلما وفن الطرب

أسعد:

زغلول ركن الكون ع العلم انعمر
والفن لولا العلم زهر بلا ثمر
الفن بيسلّي إذا العقل اختمر
والعلم بالأعمال بيعبي الكمر
وبالعلم مش بالفن بالعصر الحديث
الإنسان بالصاروخ وصّل ع القمر

الزغلول:

يا أسعد بها العصر والعصر المضى
الفن ابتسم للعلم في بسمة رضى
ولو ما عقل فنان بالفكرة احتضى
حلّق الإنسان والأمر انقضى
وفن الصناعة والعمل والمعرفة
ما تكوّن الصاروخ واحتلّ الفضا

أسعد:

يا زغلول العلم شمس الهداية
العلم سر البداية والنهاية
وما بيريّش الطفل الزغيّر
إلا بالكتابة والقرايي
بفضل العلم ليل العمر نوّر

ورفع للعقل والتفكير راية
وكل إنسان بالدنيي تطور
وصار في للبشر مصدر وغاية
إن كان الفن بخيالك تصور
اسمحلي فهمك سر الحكاية
العلم متل المراية ع المكبر
وج الفن ما بيشوف حالو
إن شال العلم من وج المرايي

الزغلول:

بفن العلم بين ساعة وساعة
اسمعونا وانصفونا يا جماعة
اللي عندو فن ما بيخسر حسابو
الزكا فرض العمل والعلم طاعة
وما كان العلم بيخلّد صحابو
لو ما ينوجد فن الطباعة
ومن فن الحياكة ومن تيابو
صنعنا قماش من أغلى بضاعة
ورجع فن الرياضة ومن شبابو
عطانا مقدرة وقوة وشجاعة
وإذا بالعلم كفك دق بابو
ما تنسى مقدرة فن الزراعة
وبفن اللحن وبنغمة ربابو

سمعو صوتنا بدار الإذاعة
وقلحنا الكون وقلبنا ترابو
من الموسم خلق أربع مواسم
ونشلنا الناس من جور المجاعة

* * * *

زين شعيب:

الزغلول بفنو رضينا
وأسعد علمو بيكفينا
أبجد هوز حط الأكل
وحن علينا وطعمينا
الزغلول بريشة فنان
النحلة بيرسمها دبور
وأسعدنا بعشرين لسان
متعلم يحكي بالزور
حركلي حالك يا جان
بكلمة تضحك هالجمهور
حاجي ملبّص بالميدان
متل الونش إلعلّ مينا

جان:

شو جابك بين الأرياح
يا ريتك بالبيت بقيت
ع الونش إل من دون جناح

الليلة بوديك ترانزيت
تحركنا وحملنا رماح
ولما على المينا مشيت
رحنا ع ظهر التمساح
عملنا كزدورة وجينا

* * * *

وأبجد هوز حط الأكل
وحن علينا وطعمينا

خيال خليل روكز

الجوقتان البارزتان على الساحة في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، كانتا جوقة زغلول الدامور وجوقة الجبل. **جوقة الزغلول** كانت مؤلفة من: جوزيف الهاشم، وزين شعيب، أسعد سعيد وجان رعد. **وجوقة الجبل** كانت تغربل وتنتقي لتتجمع في تشكيلة أخيرة. مر على جوقة الجبل السيد محمد مصطفى، جورج هبر، أحمد شعيب، أديب محاسب؛ واستقرت في أوائل الستينيات على خليل روكز، أنيس الفغالي، موسى زغيب، وجريس البستاني.

آخر حفلة غناها شاعرنا الكبير الراحل خليل روكز، وقد أقيمت الحفلة في أنطلياس في 1 تشرين الأول 1962، والمعروف أن خليل غادرنا في 27 تشرين الثاني 1962، أي قبل رحيله بشهرين.

من هذه الحفلة نلاحظ النفَس الشعري لخليل روكز، ومفاصل الردة، ومفارقات الجواب الطريف. وكانت جوقة الجبل قد أخذت عن جوقة الشحرور الطريقة التالية: أنه قبل افتتاحية الحفل، يبدأ كل شاعر ردة ردة، وبعدها يفتتح رئيس الفرقة وتبدأ الحفل.

نذكر أوائل ما قاله خليل روكز:

طلي عل الوادي وعرايشها

وشوفي هوا الناعم يناغشها

ونسمة طرية شاردة بها الليل

من غصن تفلت.. غصن يكمشها

من هنا بدأ خليل من الشاعرية العفوية، ومن صور طبيعة الضيعة، وقبل أن يرحل أخذ يفلسف الأمور ويقول:

قللي الحكيم لا تشرب الخمرة

هيدي حرام وشربها بياذيك

بتحط بعيونك بقع حمرا

وبالآخرة عل القبر بتوديك

قلت لو يا شايف الجمرة

تفلسف لأنو حرقها مش فيك

الله يبليك بهوى سمرا

تاتشوف غير الخمر شو بيشفيك؟

خليل روكز الجنوبي ابن وادي الليمون، كان من عشاق الطبيعة، ونشعر بهذا العشق من افتتاحيات حفلاته، إذ كان يستوحي جو الحفلة من مكانها، ويجمع بين المنظر الطبيعي ومنظر الجمهور، وأجمل دليل هوفي وصفه لصوت المياه:

يا صوت الميّ يا مصدر جنوني

يقول خليل روكز في القرادي:

سبقنا فصل الشتوية

ع شواطينا البحرية

تانطعم خد الليمون

من التفاحة الصيفية
ودعنا الصيف بصنين
ونزلنا برفقة أيلول
نتذكر جرم التكوين
الخلانا نخلق وندول
بطلّع بعيون الحلوين
وبتنهّد وبصير بقول
يقصف عمرك يا تشرين
شو جايي تعمل فيّي

كما سبق وذكرنا إن جيل العصر الثالث من الزجل أي جيلنا، حرر الحفلات من القيود التي كانت مفروضة عليها وهي مواضيع يغنيها الشعراء والناس، وأدخل القصيدة الغزلية الصغيرة، كما أدخل قصيدة النكت التي تطلب في الحفلات كافة، ومن أشهر القصائد التي كانت تتردد هي قصيدة "كركوبة" لجان رعد، و"السيارة" و"الشحاد" لزين شعيب، وقصيدة "يا ليل" لزغلول الدامور، وأحلى قصائد خليل روكز التي كانت تطلب في كل حفلة مثل "يا ريت عندي آخ لو فيي".

سنقرأ بعض محاورات خليل مع شعراء آخرين، حتى نعرف كيفية الطريقة التي اتبعها خليل في الحوار الزجلي. نقرأ في إفتتاحية خليل في مباراة الكرمنيك في بيروت مع السيد محمد مصطفى:

يا أهل الذوق بدي تسمحولي
بضمير الشعر خبر عن ميولي
أنا لا شاعر عياري ولني

بشعري اتكالي ولا وصولي
أنا شاعر عشت كرمال فني
القناعة بايدها مضيت وصولي
أنا بغني تشيل الهم عنّي
مش تافرّج العالم ع طولي
أنا بغني تأعطي الشعر مني
الخلود و عيّشو بدنية أصولي
لكن كل شي صار لي بغني
لا بنطر حدا ينادي باسمي
ولا بستأجر جماعة يزقفولي

الحوار الزجلي المنبري حرب فكرية لها أصول وقواعد، فيها الهجوم والدفاع والمناورة والاستدراج ونصب الكمائن، والشاعر يتوصل إلى فهم قوانين هذه الحرب من خلال الممارسة. خليل روكز عاشر وعارك كل شعراء جيله إذا استثنينا جوقة الشحرور؛ خليل روكز غنى مع زغلول كفرشيما، ميشال القهوجي، وديع الشرتوني، كميل شلهوب، جورج هبر، أنيس فغالي، زين شعيب، حنا موسى، رفيق بولس، جوزيف الهاشم، أسعد سعيد، السيد محمد مصطفى؛ كما غنى مع الجيل الجديد: أحمد شعيب، موسى زغيب، غنيم الزغبي، جريس البستاني، وأديب محاسب. وعلى ذكر أديب محاسب، فهو شاعر خفيف الظل وطريف، وآخر ردة سمعتها منه تقول في السطر الأخير:

اللي كان يشرب خابية ويبطح بطل
ختير وصفى كاس فاضي يبطحو

نعود إلى خليل في مقطع آخر من افتتاحية الكرمنيك.

وعا هالحفلة قبل ما تسألوني
خدو غصة جوابي من عيوني
أنا لو ما بجيابي الفقر غنى
على المنبر ما كنتو بتقشعوني
صرفت عمري تغزل في وطنا
تا جن الشعر من ثورة جنوني
غيري من الشعر فنّى وجنّى
وأنا باقي متل ما بتعرفوني
أنا ممنون من أحمد وحنا
القدر إمكانهن بيناصروني
ومش ممنون من شاعر تجنى
ومثّلْ هجمة الموجة عاجوني

اسألو اللي بجوقتي سنتين غنى
وحملتو متل كحلة ع جفوني
وعطيتو عز أكتر ما تمنى
وحضنتو حضنة الأم الحنوني

ننتقل من طريقة تحيات خليل روكز، إلى حوار طريف أقيم في الحفل الأخير، الحوار كان بين خليل روكز وأنيس الفغالي.

خليل:

يا أنيس لا تذمني ولا تحبني
مشغول عقلي الشعر عارف شو بني

أنيس:

بالصيف حرمتك على نوم الغفا
وبعدك لهلق كل حكياتك جفا
ع مجالي مش شموخك رجّعك
ما كرهت درب الجرد لولا من الحفا

خليل:

بصيف وشتي نحنا بنعرف انت مين
نقطة ندي بترنخك أربع سنين
تا أطلع على الجرد ما عندي حنين
وساعة ما بدي بطلع معلّي الجبين
اسمي نبي ومن قبل كانوا الأنبيا
ما يطلعو ع الجرد إلّا حافيين

أنيس:

تجاهلتني لكن أنا اسمي عريق
ومن كبر عقلي هالحكي منك بطيق
بهنيك ما زال الوعي عندك عميق
من قبل ما كانوا الحفاة يبشّرو
وانت حافي بس غيرت الطريق

خليل:

أول نبي كانت حياتو معذبي
وثاني نبي في مزوَد الراعي ربي
وثالث نبي كان لو رسالة طيبه

وكلهن مشيو بطريق التجربي

وهلق أنا جايي نبي الشعر الأبي

ضيعت عن طرفاتهن في طيبي

حيث النبي باللي بيجي آخر زمان

مجبور يلقي الضرب عن أول نبي

أنيس:

أول نبي سَنّ الشريعة المبهجة

وثاني نبي هد التماثيل ونجي

من هالتنين الخير كلو منرتجي

ضبطوا الدني ووعوا خليقة مبنّجة

وحضرت جنابك يا نبي آخر زمان

لنهاية الألفين دورك تايجي

خليل:

آخر نبي وجايي ع دنيا مرجرجة

وراح أخر ظهوري ع وجه البوسطجي

وراح أخر ظهوري ونغم عمري الشجي.

لما تصير الشمس جمرة ملهوجة

ولما السما بتصير صفرا مبنجي

ولما العجوز بتصير بنت مغنجة

والعجرمي بتصير مثل بنفسجة

ولما بيجي الدجال تيطغى العباد

في وقتها بيصير دوري تا إجي

تاريخ الزجل اللبناني يقف وقفة طويلة عند أندر طيرين غردا في حديقة الزجل، وأعني بهما: شحرور الوادي وخليل روكز. ومن سوء حظ الزجل أن حياتهما كانت قصيرة؛ والغريب أنهما رحلا بالعلة نفسها وفي المستشفى ذاته، وبالعمر نفسه تقريباً؛ فالشحرور من مواليد 1894 توفي عام 1937، وخليل روكز من مواليد 1922 توفي عام 1962، الشحرور عاش 43 عاماً، وخليل 40 عاماً.

قصيدتان ظهرتا من المستشفى واحدة للشحرور وأخرى لخليل روكز.

يقول الشحرور:

بحبك بحبك قد ما تعمل معي

لو غاص قلبي بين جفني ومدمعي

عينك يا ولفي تشوف ولفك ع الفراش

من يوم صدك لا استفاق ولا وعي

عينك يا ولفي تشوف ولفك ع الفراش

كومة عظام ملفلفة بين القماش

عز اللقا وخاب الأمل بالانتعاش

والبين حوّم ع حواشي مضجعي

عينك يا ولفي تشوف ولفك بالنزاع

ويلمحك لمحة أخيرة بالوداع

وجراس حزني تدق دقات اجتماع

وكل وادي لأختها تقول سمعي

خليل روكز:

بين الوجع والآخ والسرساب

فايق وناطر تسألي عنّي

لا سمعت دعساتك ولا البواب
شافك ولا الدكتور طمنَي
مليغشن وبجروحي خزيق سياخ
وحس الفضا بفتحة عيوني داخ
وبخيال نوبات البكي والآخ
سامع صدى صوتك عم يغنّي
ونهدات تزرع دوختي مشاوير
واتشردق بسعلة طويلة كتير
ويشدني حلم النزاع ويطير
ليكِ وانتي تهربي مني

من أجواء الحزن ننتقل إلى جو الفرح؛ ففي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات قبل أن يغادرنا الشاعر الكبير خليل روكز، كان يوجد جوقة زغلول الدامور وجوقة الجبل.

وتاريخ الزجل يقف وقفة كبيرة لبلدة المتين التي لها الفضل الكبير في نشوء منبر المباريات. المتين كانت ساحة وعروس المباريات الزجلية، وأول مباراة ضخمة كانت بين جوقة زغلول الدامور وجوقة الجبل، وكان الشعراء: زغلول الدامور (جوزيف الهاشم) وزين شعيب وأسعد سعيد جان رعد؛ وكانت جوقة الجبل مؤلفة من خليل روكز، السيد محمد مصطفى، موسى زغيب، وأديب محاسب. وأكبر مفارقة لأغرب قصيدة زجلية هي قصيدة غزل للشاعر خليل روكز. ويا تقبرني كلمة لبنانية دارجة، وزين شعيب في قصيدة "الشحاد" يقول:

بشحدلك الغفوة من النعسان
حتى تنامي يا تقبريني

وشاعر الغزل يقول:

وما بقول إلا يقبروني هالعيون

خليل روكز له قصيدة اسمها "المقبرة" وكان لها شعبية كبيرة وكانت تُطلب من الجمهور، وقد غنيت بعد وفاته بصوت مهدي زعرور ترافقه الربابة.

بالعودة إلى هذه القصيدة، نكتشف الأبعاد التي وضعها خليل روكز الذي جعل من القصيدة شعبية كبيرة.

ما زال راح تبقي ع ضعفي مكبرة
وما زال ما في عفو عند المقدرة
إنشالله تموتي وما حدا بدفنك يجي
وقيمك لوحدي ووصلك ع المقبرة

وصدفة إن إجا إنسان تا يحمل معي
بقلّلو تركني وبالوصية بدعي
من ميل تحت النعش بخفي مدمعي
ومن ميل وحدي بكون حامل جوهرة

وكل فشخة كنت بقعد بستريح
بزيح الغطا وبتأمل بوجهك مليح
وبسقي شفافك من عطش قلبي الجريح
وبطلب من عيونك شفاعة ومغفرة

كلما ارتحت ورجعت قيمك من جديد
بصير صلّي تا القبر يبقى بعيد

منشان اشبع والنعش يشبع تهيد
شبعة أبد حامل بنعش الآخرة

وغني فراقيات تابمضي النهار
بدور ع داير تعشك الأخضر غبار
ونوقّع أنا والنعش آخرة النهار
وقعة ابن مريم ع درب الناصرة

وبرجع بقيم النعش عن أرض الهموم
وبشحد شوية عمر من عمر الغيوم
وبعود بمشي هون بوقع هون قوم
بضيّع نهاري بالمشي وعند الغروب
بنوصل انا وإنتِ سوى ع المقبرة

عشرات الجوقات:
بين السيد محمد مصطفى وخليل شحرور

إن تاريخ المنبر الزجليّ ينقسم إلى قسمين: قسم ما قبل الاحتراف، وآخر ما بعد الاحتراف. قبل الاحتراف كان كل قوال يقول بمفرد، وبعد الاحتراف أصبح التاريخ تاريخ جوقة.

الجوقة تتألف من أربعة عناصر، أيام الشحرور كانت الجوقة تنقسم إلى قسمين كل قسم ضد القسم الآخر، وبعد جوقة الشحرور، أصبحت الجوقات تتألف من واحد ضد ثلاثة. الجوقة الوحيدة التي ظلت متماسكة في تاريخ الزجل هي جوقة الشحرور الذي لم يفرقها إلا الموت؛ أما جوقة زغلول الدامور بعناصرها" جوزيف الهاشم، زين شعيب، أسعد سعيد، جان رعد، بقيت متماسكة لمدة 15 عاماً قبل أن يتركها أسعد وجان؛ أيضاً جوقة خليل روكز تماسكت في التركيبة الجديدة بعد رحيل خليل؛ وبعد ذلك أصبحت الفرق تتخردق، فتدخلها عناصر وتخرج منها عناصر، ولكن يبقى المنبر الزجلي مستمر بالاتصال بجماهيره اللبنانية الغفيرة.

حبك غلي يا دار يا قلبي غلي
وعنقودك الغاوي على إمو حلي

انتي ببالي بيوت حلوة مشرعة

وإيدين تغزل نار يوم المرجلة

باعت مرسال يسأل عن بنت زغيرة

قال يوما قال كان ينطرها بالجيرة

ويا فاضي البال ما تدوق إنشالله الغيرة

ميّل خيال.. ميّل خيال وانخطبت وإنت غايب

وللتاريخ نذكر أنه لم تكن تمر سنة إلا وتتألف فرق جديدة من عناصر متواجدة على الساحة ذات شهرة، ومن الجدد الذين كانوا يطمعون بعناصر قديمة. كانت إعلانات حفلات الزجل تغطي كل المناطق اللبنانية، جوقة الشحرور، جوقة زغلول كفرشيما، جوقة زغلول الدامور، جوقة الجبل، جوقة الأرز، جوقة بنت العرزال، جوقة زغلول بكاسين، جوقة بلبل الكورة، جوقة كروان الوادي؛ ومن هذه الجوقات برزت أسماء وأخذت شهرة منبرية واسعة.

على صعيد تاريخ المنبر الزجلي كانت الإذاعة اللبنانية أنشط المنابر، ندوة الزجل في الإذاعة اللبنانية كانت المنبر الذي لم يحرم منه أي قوال من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال؛ وقد تستغربون إذا علمتم أن على شرائط ندوة الزجل في الإذاعة اللبنانية أسماء الـ 35 جوقة زجلية، وإذا ضربنا 35 بـ 4 تكون النتيجة 140 قوالاً.

أنا سيد المعنى والفصاحة

بها الساحة العليّة وكل ساحة

وسيف بيمسح الإعدا بحدو

متل ما بتمسح الأرض المساحة

رماني الدهر بالمتلك رماني

وفوارس راكعة تسقي حصاني

انت وبنت اختك والسليلة

بدي متلكم سبعة تماني

يا بو صالح أنا جايي لحالي

تاقول الحكي بصوت عالي

خالي وانت شغلتكن غميقة

كل ما بتسهرو بيحصل قتالي

نحن شعراء المنبر، خرجنا من السهرات إلى المنابر، ولا يستطيع أي شاعر أن ينسى بداياته وطفولته الشعرية؛ فلا أستطيع أن أنسى أبداً سهرات كفر ملكي، وزغدرايا وكفر حتي، وبحمدون مع الشاعر الراحل خليل روكز؛ ولا سهرات ضبية وأنطلياس والذوق وميروبا مع فيليب الخوري وغنيم الزغبي وجان قسيس وخليل أبو خليل وانطوان زغيب ويوسف أبو خليل الحسون الصديق.

طلي يا حلوة طلي

يا غلي بسنة القللي

جايي من الجرد الحسون

يقطف ويعبي السلة

كنك طامع بالزيتون

غصونو عم تبكي ع غصون

شو راح تقطف يا حسون

والإعدا سرقو الغلة

أيضاً لا أستطيع أن أنسى سهرات عنفون والسكسكية والبابلية والدوير وبيروت، مع الشعراء: عبد الجليل وهبة، أحمد نجم، زين شعيب، قاسم العباوي، حنا موسى، وللعلم وفي التراث الزجلي اليوم بقي عندنا طربوشان فقط: طربوش حنا موسى، وطربوش عبد المنعم فقيه، ولنستمع إلى عبد المنعم فقيه:

لبنان لما كوّنو رب الورى
مشّى الأرز قدام والدنيا ورا
للزايرين نفتح بواب قلوبنا
وللفاتح بنفتح بواب المقبرة

وعلى ذكر الجوقات لا نستطيع أن ننسى جوقة "كروان الوادي" التي تأتي في تاريخ المنبر الزجلي كحلقة وصل بين جيل جوقة الشحرور وجيلنا. وسنستمع إلى غناء كروان الوادي، وكيف كانت طريقة إلقاء القصيد في أيامه، وبلهجة فيها التمهل وفيها نكهة خاصة. الحوار بين كروان الوادي (كميل خليفة) وبين قاسم العباوي:

كروان الوادي:

يا جمال الشعر يا شعر الجمال
جوهرك موضوع حساس انطرق
بترعى جروحي متل ما بيرعى الغزال
وفي خاطري إلا غرامك ما مرق
ياما بروحك كاتب ليالي الدلال
متل ما بالخابية طاب العرق

قلبي انسرق بالحب والسرقة حلال
لكن هواك الحلم من عيني سرق
مش كل شاعر في مجال الفكر جال
ولا كل كوكب موهبة جبينو شرق
قديش عنّا بدنية المنبر رجال
هيدا طفل محروق والتاني احترق
وياما الطريق مواكب رجال المجال
ع مفرق الإلهام تفكيري افترق
الشعر موجة نور تفقش بالخيال
مش حبر عم بيقول ضيعان الورق

قاسم العباوي:

ما زال أيام القوافي هجرتك
مش رح بتربح بالمعنى تجرتك
ورد الزجل موجود برياض الفنون
ولليوم ما قطفنا جنى من شجرتك

كروان الوادي:

وردة خلودي مزيّنة بغصونها
ومواكب فكار النبوغ حصونها
نفحاتها اختمرت قوافل عاطفة
والشعر موسيقة حنين غصونها

قاسم العباوي:

موسيقتك لحن الهنا فيها ابتدا

لما على أوتارها صوتي شدا

ولوما أنا أستاذ في دنيا الطرب

ما كان بالأنغام في إلها صدى

كروان الوادي:

موسيقتي مش لحن ضايع بالوجود

وريشة غوى تلعب على أوتار عود

موسيقتي بالشعر هي تقسيمتي

هيدي صدا أرواح آلهة الخلود

بعد هذا الحوار القصير الذي أعطانا فكرة عن جوقة كروان الوادي وبين كميل خليفة وقاسم العباوي، نعود إلى أجواء الزجل المربوطة بحياة القرية.

أذكر أنه في مثل هذه الأيام يكون كل أهل القرى في ضيعهم، وفي كل ضيعة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، اليوم أيام التين والعنب والسهرات الجميلة، التي تعتبر أيام العيد لكل قرية؛ وفي قريتنا وفي الصيف تحديداً كنا نجتمع في ساحة الضيعة وكانت الدربكة موجودة، وتبدأ الرقصة، ثم يبدأ الغناء الزجلي ثم نعود إلى الدبكة التي قد تستمر طويلاً إذا كان دقّاق المجوز ماهراً.

هذه هي عاداتنا القديمة ونتمنى أن يعود السلام إلى لبنان وأن يعود الأمن، وأن تعود كل ضيعة إلى حياتها الأصيلة وتعود حليمة إلى عادتها القديمة.

زعلت حليمة راضينا حليمة

ورجعت حليمة لعادتها القديمة

من جملة القرى الغالية على قلبي هي قرية حومين التحتا، إذ لا أنسى سهراتها ولا صداقاتها ولا أنسى القربى التي تجمعني فيها ولا أنسى الصديق الشاعر السيد محمد مصطفى، كما لا أنسى هونين ولا الحبيب الغالي العزيز خليل شحرور.

وهذه مداعبة مسرحية بين الشاعرين السيد محمد مصطفى وخليل شحرور.

السيد محمد مصطفى:

شحرور من بعد البحث والمشورة

صار لازم نخلّي الحقائق ظاهرة

شافك خبير كبير قلك يا ترى

حيرتني في بنيتك والمسطرة

من كتفك ونازل عرض جسمك تقيل

ومن عنقك وطالع خفيفه الجوهرة

خليل شحرور:

بصدور وقلوب الإله اختارها

موزّع أمانات الهدى وأسرارها

وهالجوهرة اللي خففت أسعارها

تقيلة مع البيقدَرو مضمارها

لكن إذا خف الخصم بدها تصير

تعطي حسب وزن الزبون عيارها

السيد محمد مصطفى:

متلك النحلة ناعمة جناحاتها

وجسمك مخشن ع هوا عقصاتها

مخفف عيار الجوهرة بكفاتها

بحسب الزبون مغيرا عاداتها

الشمس تشرق ع الرفيع وع الوضيع

ليش ما بتشرق ع هوا زبوناتها؟

خليل شحرور:

ما بخاف لو جسمي بالخشونه اكتفى

ومية الأطباع بتصون الوفا

حتى الشمس خلقت لها وج وقفا

بتغرب بتشرق والعكر ضد الصفا

ولا تلومني لولا ظهرتلك جفا

مش بس وحدي الأرض متلي بها الصفة

مطرح بتنبت ورد حسب الزارعين

ومطرح بيطلع شوك يا بو مصطفى

السيد محمد مصطفى:

قلت الشمس إلها غروب ومنزلة

غلطان فيها الأرض عملت غربلة

منها وفيها الأرض عملت مشكلة

بيطلع مرض للزرع تصبح ماحلة

وما زال بخشونة ونعومة المسألة

صارت وها التشبيه بعيونك حلي

خللي إلك بسمة الوردة الناعمة

وخشونة الشوكات خليها إلي

خليل شحرور:

خللي الوردة تحن عا أشكالها

والعطر يبقى مالها ورسمالها

ويا شوك ما فيك نعومة تطالها

خشونية طباعك جنت عا حالها

الوردة السقوها من نبع آمالها

خلّيك متخبّي بظل خيالها

حتى إذا شربِت من عيون الصفا

بتصير تشرب حضرتك كرمالها

أجواء المباريات الزجلية أيام العزّ

أهم ما يجذب أنظار محبي الزجل هو المباراة، المباراة بين الجوقة، وجماليتها أن الجوقة أحياناً يساير أفرادها بعضهم بعضاً، بمعنى أن المعركة ليس فيها كسر عظم، بعكس المباريات التي تكون فيها الكلمة أعنف والصراع حقيقي.

على ذكر المباريات لا يمكن أن ننسى أبداً البلدة الجميلة عروسة المتن: المتين، في جبل لبنان

المتين، لها فضل كبير على منبر المباريات الزجلية، ونستطيع أن نشبه المتين بسوق عكاظ، لأن فكرة المباريات انطلقت منها.

تاريخياً نستطيع أن نقول إن أهم أساس تعمّر عليه منبر المباريات، حفلتان أقيمتا في بلدة المتين، الأولى كانت عام 1961، بين جوقة زغلول الدامور وجوقة الجبل، وجوقة الجبل يومها كانت مؤلفة من: خليل روكز، السيد محمد مصطفى، موسى زغيب، وأديب محاسب؛ أما جوقة الزغلول، فكانت مؤلفة من جوزيف الهاشم، زين شعيب، أسعد سعيد، جان رعد. والمباراة المهمة التي حصلت كانت في عام 1964، بعد رحيل خليل روكز، كان شعراء الجوقة قد اقتصروا على موسى زغيب، أنيس فغالي، جريس

البستاني، بطرس ديب. وكانت الجوقة قد أخذت اسم رئيسها الراحل أي جوقة "خليل روكز".

حاولت كثيراً أن أجد أي نص للمباراة الأولى فلم أجد، ولكن حسن الحظ حالفني ووجدت نصاً للمباراة الثانية.

سأعطيكم فكرة عن جو المباراة كوني كنت أحد المشاركين بها: في 13 أيلول 1964، وعند الساعة التاسعة مساءً، كانت المتين أشبه بيوم القيامة، مئات السيارات، وأذكر في تلك الأيام أن الناس كانت تدفع مئات الليرات – عندما كانت المئة لها قيمة – حتى تجد طاولة أو مقعد شاغر، وكانت قصيدة الافتتاح الأولى بصوت زغلول الدامور ومطلعها:

يا شمس لا تغيبي ع المتين رجعي

هذه صورة عن أيام العز.. عز الزجل.. عز لبنان.. أيام السلام.. أيام الهناء والهدوء التي نتمنى رجوعها بكل تفاصيلها. قلت في وصف وطني لبنان:

لبنان أجمل ما خلق الله جمال
وأصدق تعايش للصليب وللهلال
المفروض يخلص من جنون الاقتتال
ويخلص شريط حدودنا من الاحتلال
ويرجع زجلنا حر مطلوق الخيال
وحفلاتنا تعم السواحل والجبال
من سير الضنية لصور ولسيرجبال
ومن دير دوريت لدردغيا لدار غزال
ومن عينتورين لعينطورة لعين بال

ومن عين عنوب لعين دارة لعين بعال

حفلة بأول يوم ع حدود الجنوب

وحفلة بتاني يوم ع حدود الشمال

لأن مباريات المتين كانت نقطة الانطلاق للمباريات بين الفرق الزجلية، ونظرا إلى أهمية هذه المباريات، سنبقى مع جوقة زغلول الدامور وجوقة خليل روكز. وللتاريخ نقول إن هاتين الجوقتين تصدرتا واجهة المباريات من الستينيات حتى اليوم. وبغض النظر عن التغييرات التي حصلت بين أعضاء الفرقتين، فجوقة زغلول الدامور غادرها أسعد وجان، ودخل طليع والراحل إدوارد حرب مكان أسعد سعيد وجان رعد، لكن بقيت معمّرة ومزدهرة بركنيها الأساسيين: زغلول وزين.

جوقة خليل روكز أخذت اسم "جوقة القلعة"، وحصلت فيها تغييرات كثيرة، غادرها أنيس وانضم إليها أحمد السيد، وبعدها ترك جريس البستاني وأحمد السيد وتألفت من جديد باسم "جوقة الجبل". وعلى الرغم من كل ما حدث، بقيت جوقة الزغلول وجوقة القلعة تتصدران واجهة المباريات حتى اليوم.

بالعودة إلى مباراة المتين، نتوقف عند قرادي لجان رعد :

سجلّي سفر التكوين   تنجدد عهد الماضي
ومش ع سفر الملايين   للراضي والمش راضي
تناعشر طلقة يا مسكين   عقلك يطلق ع الفاضي
وخلّف بعد تلات سنين   لا محروس بيلبس طقم
ولا بتلبقلو التنورة

ونعود إلى مقتطفات من محاورة المعنّى بين جان رعد وبطرس ديب.

يقول بطرس:

انشق الفضا يا متين والنسر اعتلى
وصارت عروس النصر تلده يا هلا
تلاتعش من أيلول خلينا الفلا
بطلقاتنا في ها الدني إلها صَلا
يا جان خللي الشعر والأفضل بلا
تياب وتنانير لسنين الغلا
وإن كان هيدا سلاحك تكتّف وقول
الحق ع اللي زتّك بتمّ البلا

جان:

بطرس لا تتسلى بمسبحة الصلا
إن وصلت لإيدك اسجد لرب الملا
ما جيت حط الحق هالليلة على
غيري أنا اللي رضيت حطك بالعلا
كنت افتكرتك بدر قادر تنجلا
لقيتك بلا والناس كرهاني البلا
وتنقول ع إنك بلا شو حاوجك
تحكي ع حالك هيك لو منّك بلا

بطرس:

المنبر صفي اسحق وافي كل دين
والشعر بيو مقومو للأمتين

ولولا ع ذبحي انت مريت اليدين

ع صفحة التاريخ بيصيرو تلين

الأول فدا اسحق ع راس الجبل

وبطرس فدا المنبر بحفلات المتين

المحاورة طويلة جداً، وسنختمها بآخر جواب لجان رعد من مقتطفات المتين بين الشاعرين جان رعد وبطرس ديب.

جان رعد:

التاريخ عيفو مستّر ولا تفضحو

انتو اللي فيكن عن ولدنا تصفحو

وانتو اللي فيكن تجبروني أطرحو

يا بتبعتولي مطرحو كبش الغنم

يما إذا قلتو ذبحو راح إذبحو

بين زين شعيب وأنيس الفغالي

بين شاعر الزجل وجمهوره علاقة حميمة، ولكل شاعر نوعية معينة من الجمهور، والشاعر يحور ويدور دائماً ويحاول أن يبحث عن طريقة يرضي بها الأذواق المختلفة في جمهور واحد.

هناك من الجمهور من يعرف الشعر ولعبة الشعر ويتذوقه؛ وهناك آخرون يذهبون ليحضروا حفلاً وحسب؛ هناك من يحب العنتريات، وهناك من يعتبر العنتريات كلاماً فارغاً؛ هناك من يحب الجواب المحكم، وهناك من يهتمون للصوت الجميل؛ وعلى الرغم من كل هذه الأذواق المتنافرة، لا يزال الزجل يستقطب كل الناس الذي يؤلفون الجمهور الكبير للمنبر الزجلي.

في أيام الشحرور كانوا يقولون إن القصيد للشحرور، والمعنّى لعلي الحاج، والقرّادي ليوسف الكحالة؛ في أيامنا يقولون إن العنتريات لفلان، والجواب المحكم لفلان، والردة التي فيها الشعر لفلان، والردة التي فيها فكر لفلان من دون تحديد أسماء.

بالعودة إلى أول مباريتين في تاريخ المنبر الزجلي بحسب رأيي. مباراة عام 1961، ومباراة عام 1964؛ **الأولى** من جوقة الجبل قبل رحيل خليل روكز، **والثانية** بعد رحيل خليل؛ كنا وقفنا عند محاورة بين جان رعد

وبين بطرس ديب، ونتابع محاورة بين أنيس الفغالي وزين شعيب، وقبل أن نطل على المحاورة التي فيها قوة ورجولة نقرأ ردة معنّى ناعمة:

كان يا ما كان في بنت وصبي
يقلا بعمّرلك قصر تتلعبي
ودار الزمان وبعد في كومة حجار
تصرّخ يا أيام الزغر لا تهربي

كان يا ما كان، وطار الزمان، ونعود إلى عام 1961، إلى المباراة الأولى التي أقيمت في المتين. يبدأ "أبو علي" زين شعيب بالقول:

غنوا الشباب وبينو كتير وقليل
وساكت أنا ومسلّح بصبر الجميل
ما ظل بالميدان إلا بو علي
إن كنك ع قد الحمل شرّف يا خليل

خليل:

يا زين كنك جيت تعزمني إلي
شد العزيمة وقد ما فيك اعتلي
من جهتي قبلت العزيمة وجيت ليك
ع شرط بدنا انت تبقى بو علي

ونقتطف ردات من محاورة أنيس الفغالي وزين شعيب.

أنيس:

بدنا إله الشعر يحكي ع الهدا
ونترحم وما نضل عن درب الهدى

بخاف إن سرجنا المهر والشوط ابتدا
نزور المتين صحاب ونسرّب عدا
نسر بمجالي بضيّق عليه المدا
وخلّيت صفقة جانحيه بلا صدا
معوّد ع حملة شعر بتهد الكتاف
ومع احترامي لزين مش شايف حدا

ويضيف أنيس:

المرأة ضعيفة ودمعها رسمالها
وهالحكم جوزفين ما بيطالها
رجّالها دوّخ أوروبا تلت جيل
ولما هملها دوّخت رجّالها

أبو علي يقول:

جايي تدوّخ بو علي بها الملتقى
من عادتي الحرمة ما بعطيها الثقة
بدفعلها باقي المؤخر يا أنيس
وبحلف عليها بالتلاتة طالقة

انيس:

لا من زواجك زادت الدنيا زكي
ولا من طلاقك طار عرش المملكة
كل ردة في عليها فزلكة
وعنق الفغالي حد عينك ما تكي

خصمك شقي توقاه أو لا تشتكي

عندي الشقي ما هم ضحكك والبكي

البيهم حاجي تعن وتكتّر حكي

الأنصار شعلت والفكار ملبكي

بدك تسالم شرط سلمك وقّعو

بدك تحارب حلّ وقت المعركة

جواب أبو علي:

يا معتر بحضن المنية شو رماك

وحياة من للموت باعك واشتراك

لو شفت عبسي من حواجب بو علي

بخليك تركض شهر وتطلّع وراك

قفلة أنيس:

السلم حكمة ومرجع الحكمة إلي

منعت التعدي والشغب والمرجلة

تلفتت خلفي بعد ما عم السلام

بكيت الجنون وقلت يرحم بو علي

قفلة جواب زين:

لكن يا خيي المجدلية بها الربوع

إبكي واركع ع قدم ربك يسوع

بلكي بكاك من الرجم بيخلصك

وبتعود سالم من مخاطر هالقطوع

بين زغلول الدامور وموسى زغيب

ما زلنا نتابع مباراة المتين في عام 1964، تركيزنا على هذه المباراة نابع من كونها تشكّل مفصلاً مهماً في تاريخ المنبر الزجلي، وقد قامت ضجة كبيرة بعد هذه المباراة، حول أي فرقة من الفرقتين أقوى وأفضل، فرقة زغلول الدامور أم فرقة خليل روكز؟ وهذه الضجة وهذا الجدل سبّب الفراق بين الجوقتين على صعيد المباريات، فراق استمر مدة سبع سنوات من عام 1964، حتى عام 1971؛ في عام 1971، التقت الجوقتان في مباراة دير القمر، وجوقة خليل روكز كانت تضم: موسى، أنيس، جريس، بطرس؛ وجوقة زغلول الدامور كان قد تركها أسعد سعيد وجان رعد، ودخلها طليع حمدان، وإدوارد حرب.

في آخر محاورة من مباراة المتين بين زغلول الدامور وموسى زغيب. الحلقة مثيرة جداً والجمهور متحمس لجوقة خليل روكز في أول طلّة لها بعد رحيل خليل، وكان أول لقاء بين موسى والزغلول وجهاً لوجه في مباراة.

موسى:

إن ما كان يا زغلول عزمك من حديد

داري الظروف وعن طريق الموت حيد

راح ضلني نتّف بريش جوانحك

حتى يفرخلك جوانح من جديد

وهي أول ردة لموسى زغيب.

الزغلول:

لما أبو روكز رحل عن مسرحو
من كتر ما بكيو عيوني اتجرحو
وكانوا ع هالمسرح سوية يسرحو
الطيرين والنجمات فيهن يفرحو
وتاريخ روكز لو قصدنا نشرحو
اسمك يا موسى من حسابو منطرحو
ولو كان في إنصاف كان لازم خليل
يرجع وانت تروح ترقد مطرحو

ومن هنا يبدأ موسى:

يا مرحبا يا موت إيدك هاتها
الموت ولا تحمي الأرنبي ساحاتها
لا تبحث بأحياءها وأمواتها
ع الحالتين المسألة صعبة عليك
المفعول ذاتو والخميرة ذاتها

جواب الزغلول:

وين الخميرة الكانت على أصولها
فكّر بكلماتك قبل ما تقولها
راح اللي كان الناس يسبي عقولها
وما ضل بالساحات غير زغلولها
وهالمعركة بيحزن عليّ جولها
واضطر إرمي هالخميرة الفاسدة
بغياب صاحبها انتهى مفعولها

جواب موسى:

لمن جبرني الحظ في آخر زمان
ضيع خمير القمح بطحين الذرة

ويقول موسى:

بتشحد من الزغلول يا معشر خليل
مثل اللي عم يشحد عوافي من العليل
مارق ع بابك متل شي كاهن جليل
بعيد الغطاس بيبارك وياخد قليل
كمشة طحين اسود وشي مستحيل
عكس اللي تعوّد يحط وما يشيل
اضطريت أنفخها بوج صحابها
وأقطع لساني إن ذاق من خبز البخيل

وردة أخرى للزغلول:

يللي وقفت ع الباب وقفة غانية
بكفوف ممدودة وبجبهة حانية
عطيتك من الميّات سبعة ثمانية
وخبز وقمح من عاطفة متفانية
وما زال جيت بروح سودا جانية
تنكر فضل نعمة كفوف الجانية
لو مت من فقرك ما راح أشفق عليك
ولا بدخلك ع البيت مرة ثانية

ومن ردة موسى:

واقف على بابك متل وقفة نبي
ع باب جاهل يتأذى من التجربة
ويا صاحب الحارات لا تسب العبي
النساك والأبرار فيها بتختبي
يا إسرائيل الشعر بابك سكّري
ما بيدخل لعندك مسيح الموهبي

الزغلول يجيب:

يللي كسرت إيدك تا جوعك يستريح
للأتقيا جراب الشحادة مش مليح
وعيسى المسيح المات مصلوب وجريح
قبل الصلب قام المخلّع والكسيح
وانت بعبا وجراب وشحادة ومديح
إن كان فكرك توصل ع بيتي مش صحيح
رح تدخل بحجة مسيح الموهبة
وتطلع متل يوضاس بياع المسيح

مع جواب موسى:

داخل ع بيتك دخلة الفادي السعيد
وطالع متل يوضاس قلبي مش تقي
مش بس وحدي كل ما بتعزم ملاك
بيدخل تقي ع بيتك بيطلع شقي

جواب الزغلول:

يا حضرة الشيطان ضيعت الأصول
مش كل ساعة بتقدر بتطغي العقول
كتبتلك على الباب بالأربع فصول
بآب وابن والروح ممنوع الدخول
ويا حاضرين تسمّعو شو عم يقول
وعندما نوصل على المطهر سوا
بطلع أنا، وهالآدمي بينزل نزول

قال القوّال : عتابا وقصيدة

قال القوال وغنى قلنا شو قال
الساحة ولعانة عنّا صوت القوال
ردّو حواليَ ردّو القول المرصود
المرصود الكاتب حدو عالغيم حدود
ولما الفرسان احتدو وضج البارود
اهتزو الأشيا وانهزو والصبر انشال
شعرك زهرة محروقة بحراك الليل
الليل الطاير عنزوقة من ميل الميل
يا سمرا يا عيوقة بصهلات الخيل
إنتي النبلة الممشوقة بايد الخيال

المنبر الزجلي انطلق من خطين، خط العتابا وخط المعنَى؛ صحيح أن منبر المعنى أكل منبر العتابا لكن لا ننسى أن العتابا كان لها الدور الأساسي والمهم.

قلنا إن العتابا في الأساس جاءت من الأبوذية العراقية وكل المؤرخين يتفقون على هذا الرأي لأن الأبوذية العراقية والعتابا المعروفة في لبنان وسوريا وفلسطين لهم المواصفات نفسها، الجناس واحد بالعتابا والأبوذية،

العتابا تغنى بلحن أسرع على المنبر ومن دون مصاحبة آلات موسيقية، الأبوذية تختتم بـ (ي أ)، بينما العتابا تختتم بأي حرف علة وقد استقرت أخيرا على حرف الـ (ب). وقد غنّى ناظم الغزالي أبياتاً من الأبوذية العراقية.

لا لا دموعي بيوم فقد الولف ليلة
وردت عيني يمرها النوم ليلة
لا لا تعيرني عجب بالشيب ليلى
وخِير تنينا نشيَب سوية

هذه الأبوذية العراقية مثل جناس العتابا، ولكنها تختلف ببطئها، كنت أسمع هذا اللحن يتغنى في الجنوب لكن على الطريقة اللبنانية، مرت العتابا قبل المنبر بتاريخ طويل، كان الشعب يغني عتابا وميجانا من دون جناس، شعب لن ينتظر خروج شاعر ليعطيه، الشعب يريد الغناء، الحياة مستمرة. كنا نسمع الميجانا بهذا الشكل: "**تاضل ابكي وعنّ تا قلبي يحنّ، عصفور يا بو الحنّ ودّي سلامنا**". وكانوا يغنون العتابا أيضاً من دون جناس، والجناس يعني بيت رصد. كانوا يغنون هذا البيت:

عتابا بنت عمي سلميلي
وع كل حباب قلبي سلميلي
ويا ريتك يا لحليوة تسلميلي
ويسلَم قامتك رب السما

ولما وصلت العتابا إلى الشاعر، أصبح يقول عتابا مرصود، وخرج إلى النور هذا البيت:

عتابا عتّبت قلبي وأنا صباي

وقصّو حور بستاني وأنا صباي

يا ربي لا تموتّني وأنا صباي

إلاّ هرش ماشي ع العصا

سنقرأ أعتق بيت من الفلكلور اللبناني عتابا من دون رصد:

عيني ما تشوف النوم يا ديب

حاكمها قلق ونعاس يا ديب

وغدي تسرح مع التنيان يا ديب

وتفعل ما تريد وتشتهي

نلاحظ هنا كلمة يا ديب مكررة ثلاث مرات، ويختتم بألف مقصورة: "**تفعل ما تريد وتشتهي**"، لكن العتابا عندما طلعت إلى المنبر، أصبحت لها شروطٌ قاسية، وكان هناك حكَم يحضر، وإذا كان البيت مكسوراً، يوقف القوال عن القول. ما هو البيت المكسور؟ مثلاً:

سهرت الليل ما غيبت درسي

ووجعني بعد طول الدرس ضرسي

يعتبر مكسور لوجود حرفي "الدال والضاد"، وعلى هذه الطريقة إذا كان هناك اختلاف بين حرف وحرف يعتبر البيت مكسور، كانوا يغنون العتابا من دون موضوع، بيت يجيب على بيت، وكانوا يغنون موضوع بين شيء وآخر، وكانوا يغنون على الحرف، ومن المدخل يتسلم الشاعر حرف، يعني:

أنا بجوانحي بالجو علّيت

وقلوب العدا بالحرب عدّيت

الثاني يرد:

أنا بجوانحي بالجو صلّيت

وبضرباتي صليل السيف صلّيت

والحكم والجمهور يكونان بحالة تنبه للذي يقال ويعاد، والذي يملك ذاكرة أقوى ويبقى متابعاً ومتواصلاً يعتبره الأقوى والمنتصر.

ميجانا ويا ميجانا

ريح الشمالي يا نسيم بلادنا

بلادي الحسن في ختمو مهرها

دفعنا بدمنا الغالي مهرها

ويا خيّال يا راكب مهرها

خلّي المهر يفصل بيننا

هذه عيّنات من العتابا وكيفية وطريقة غنائها، العتابا تغنت برفقة الأوركسترا لفترة وتغنت مع البزق، وعلى المنبر تغنى من دون إيقاع، وعندما تمكن منبر المعنّى أن يستولي على العتابا، أصبحت العتابا وصلة في منتصف الحفل للغزل.

صارت العتابا على منبر المعنى، البيت الأول لخليل روكز:

افرشي دموعك تحت منك ونامي

حرام العطر يدلق ع التراب

البيت الثاني لموسى زغيب:

كفاك بجو إلهامك تجنحي

وشهادة حيّك بحقك تجنحي

صرت شيّق على عتابك تا جنحي

تكسّر فوق برطاش البواب

نسمع عادة مع العتابا صوت الربابة، وأيامها كانت معروفة بربابة مهدي زعرور.

مقام العتابا هو مقام البيات، لكن مع الأغنية الملحنة يغنيها المطرب من مقام الأغنية واللحن، والعتابا تغنّى بأكثر من شكل، شكل المنبر وشكل الطرب وشكل الربابة وشكل البزق. مع البزق نشتم رائحة الأبوذية العراقية، ونشتم رائحة الربابة التي تشدنا ناحية النغمة، صحيح أن العتابا في لبنان قد أكلها المنبر – منبر الزجل والمعنّى – ولكنها حتى اليوم في فلسطين وفي سوريا لها دوراً كبيراً، ولا يزال شاعر العتابا يستطيع إحياء عرس بعرضه وطوله.

نشعر بالأبوذية العراقية والمدات والنغم والوقفة الجميلة مع الوتر ومع الكلمة. هذه المقدمة مدخل لوصولنا إلى منبر العتابا، وهي كما قلنا مثل المعنّى على المنبر. سنقرأ أبيات من العتابا، بين العين والقلب، بين رفعت مبارك والشاعر راغب الزهر.

لولا القلب والعين ما شفنا الهنا

البيت الأول لرفعت مبارك

ضَرَبت حساب حبي وبعد ضربي

عرفت إنوا الهوا من العين ضربة

وكل ما من المحبة اكلت ضربة

بقول العين للضربة سبب

رفعت حصة العين، وراغب حصة القلب.

راغب:

أنا راح خبرك بالأمر علّي

أكتر مستوى النظرات علّي

القلب للحب مصدر كل علّة

وعلى نواح القسا يفتح الباب

كسرة الميجانا: **لولا التعب والعين ما شفنا الهنا.**

جواب رفعت:

الهوا لو بحر عم يزخر عبابو

منو ما حدا بيملي عبابو

ولولا العين ما تطرق ع بابو

ما كان القلب باللوعة انصاب

أجمل ما نختم به فصل العتابا قصيدة أُنشدت بصوت صافٍ مثل الماس، صوت المطرب اللبناني وديع الصافي.

غطي يا جنوني بس غطة
خديلك تحت فيّ الأرز غطة
حلمي بالمجد كيف المجد غطّى
جبلنا وشرعّو للمجد باب
ميجانا يا ميجانا يا ميجانا

نختم هذا الكتاب بقصيدة عن الشعر لأسعد سعيد:

الشعر شو الشعر مش قصة وجاهة
ولا كلمة طنجرة وكلمة غطاها
الشعر زهرة النحل من كل مطرح
قصد مش لونها قصدو حلاها
لما الكون من الله استفتح
بكلمة كانت الأرض وسماها
ورجع الله بها الكلمة تسبّح
ما عرفّنا على وجودو سواها
وبعد ما العقل ميزانو ترجّح
وعطا الكلمة هوية محتواها
ابتدا حساب الشعر يجمع ويطرح
عذاب صياغة الفكرة وشقاها
الكلمة باب ع العالم بتفتح
طوت عمر الزمان وما طواها
كلمة بتستر وكلمة بتفضح
وكلمة بتجرح وكلمة دواها

إذا الكلمة بنِت ع السيف مسرح
جلى الشفرة وصداها من صَداها
وإذا الكلمة متل بلبل بيصدح
بيترسمل غناها من غناها
وإذا الكلمة اللي قايلها تبجّح
بتربّي عصاها اللي عصاها
وإذا ضرب العصاية ما بينجح
مع القايل بلاها ولا بلاها
وإذا غيري لحق كلمة بتنطح
وحمّل دينة السامع أذاها
أنا بفتّش على الكلمة اللي بتفلح
وبتعبّي البيادر من جناها
لأنو الشاعر اللي فكرو مجنّح
بيحكم ع القوافي ومستواها
ولأنو الشاعر الفكرو مكرسح
مهما يشد بتضل القوافي
تشدّو بخيط وتجرّو وراها

المحتويات